رواية

نبض

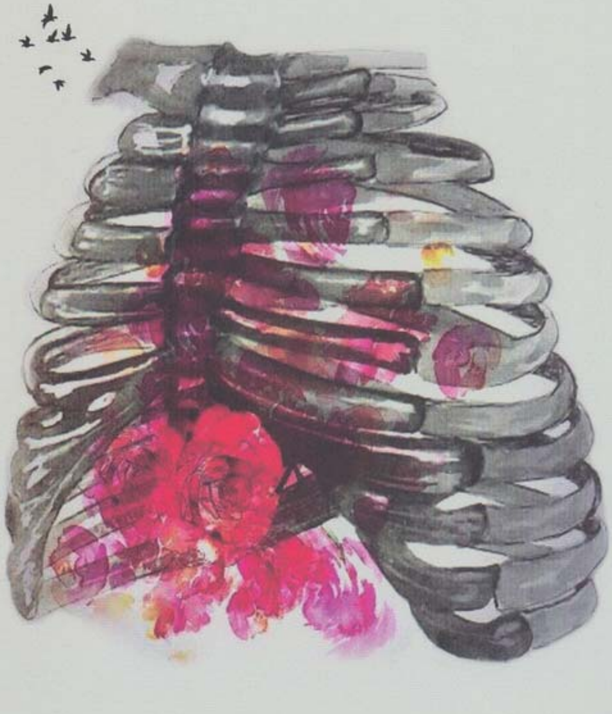

أدهم شرقاوي

" قس بن ساعدة "

الطبعة الثانية

KALEMAT

نبـــض

رواية

أدهم شرقاوي
«قسّ بن ساعدة»

٢٠١٥

KALEMAT

نبـــــض

- نبض
- أدهم شرقاوي / قسّ بن ساعدة
- دار كلمات للنشر والتوزيع
- الطبعة الثانية ٢٠١٥

دولة الكويت / محافظة العاصمة

تلفون : ٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤

٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٨٦

تويتر : @Dar_kalemat

إنستجرام : Dar_kalemat

Dar_Kalemat@hotmail.com

للتواصل مع المؤلف : @adhamsharkawi

رسم الغلاف : عطر

تويتر : @3e6r__

تصميم الغلاف : أحمد بيسان

إنستجرام : baisan

رقم الإيداع : (2015/899)

ردمك : ISBN: 978-99966-92-25-3

الإهداء

إلى فاطمـة بنتُ أحمد :

يتيمٌ كلُّ طفلٍ لستِ أُمّه

أمّا قبل...

الآنَ يا نبض أجدُ اللحظة مُؤاتيةً لأرتكبَ خيانتِي الأولى لكِ!

قرّرتُ أخيراً أن أكتبكِ!

بعضُ النّساء نخونهنّ إذ نكتبهنّ يا نبض . . .

فتحويل امرأةٍ مثلكِ إلى لغةٍ يُعتبرُ خيانةً من زاويةٍ ما . . .

أنوثتكِ الطاغيـة أكبـر من أن تُحشر في سطرٍ، أو تُعتـقل بنقطة!

ولكنّي لم أعد قادراً على حبسكِ داخلي أكثر . . .

فأنتِ في قلبي كعبوّةٍ موقوتة ضبطها مجنون إن لم أُخرجها لا أعرفُ متى تنفجرُ وتطيحُ بي!

إنّي بهذا المعنى أحاولُ أن أتخلّصَ منكِ . . .

أرأيتِ؟ في الأمر خيانة يا نبض!

ولكنّك تعـــرفين أنّي أجبنُ من أن أحـــاولَ التّـــخلّص منكِ . . .

لأني أخشى إن تخلّصتُ منكِ أن لا يبقى منّي شيءٌ يا أنا!

إنّي وبعد كل ما حدث أُحاولُ أن أقفَ على الحّد الفاصِلِ بيني وبينكِ . . .

وليس غير الكتابةِ سبيلي!

أعرفُ يا نبض أنّي إذ أكتُبكِ أُحمّلُ اللغة فوق ما تستطيع . . .

الليلُ في عينيكِ أكبر من قدرة اللغة ، وهذا السّوادُ كلّه يُعاش ولا يُحكى!

والكحلُ في جفنيكِ أوسعُ من مساحة الكلام ، والغمازة التي ترتسم على خدّكِ الأيمن حين تبتسمين تُصيب اللغة بارتباك تام

ولكنّها فكرة تستحق العناء . . .

فكان اللهُ في عون لغةٍ أُريدُ منها أن تصير أنتِ

الفصل الأوّل

طُبول

الحربِ

تُقرع

أمّا بعد...

تسأليني يا نبض : لماذا لا يتقاتلُ النّاس بأخلاق؟!

فأضحكُ وأجيبُكِ : كيف تريدين للحربِ أن تُخاض بأخلاق إذا كانت بالأساس عملاً منافياً للأخلاق!

لطالما كنتُ ضدّ الحربِ يا نبض ، لأني أعرف أنّ كلّ من يخوضها خاسر لا محالة ، المنتصرُ والمهزومُ على السّواء ، الذي ينتصرُ في الحرب هو الذي يخسرُ أقل! أو هو الأقدرُ على تحمّل الخسارات ، إنّها عضٌّ على الأصابع ، سباقٌ بين مُتألمَيْن أيّهما يصرخُ أولاً!

أرأيتِ ، لننتصرَ في الحربِ علينا أن نخسر أقلّ . . .

أي أن نُلحق بالطرف الآخر خسائر أكبر!

أي نَقتل أكثر مما نُقتل . . .

هذا هو أسوأ ما في الحربِ ، أنّها تحوّلنا إما إلى قاتلٍ أو إلى قتيل!

قتيلٌ لا يعرفُ وجه قاتله ، وقاتلٌ سيتذكر دوماً وجه القتيل!

ولكن بعض الحروبِ تختارُنا ولا نختارها يا نبض ، وهذا شأننا مع هذه الحرب ، لقد اختارتنا فخضناها! لا يمكن للنّاس أن يهربوا من أقدارهم ولقد كانت هذه الحربُ قدرنا!

في السِّلمِ يا نبض لا يُنسينا الموتُ إلا من نقررُ أن نتنازلَ عنهم . . .

وهذا بحدّ ذاته رفاهية!

أمّا في الحرب فلا نملكُ أن نختار من نترك وبمن نحتفظ!

إنّه سيّد الحضور والكلّ على موعدٍ مع الغياب!

حين تكتظُّ الذّاكرة بالرّاحلين ننسى لنعيش يا نبض ، إنّه لأمرٌ مرهقٌ أن تصبحَ الذّاكرة مقبرة فيها من الأموات أكثر مما فيها من الأحياء ، ونُصبح كالقطارات ، النّاسُ على متنها مجرّد مسافرين ، في كل محطّةٍ ينزلُ البعضُ ويصعدُ آخرون ، وليس لدينا وقت لنلوّح للذين نزلوا ولا أن نحتفل بالذين صعدوا ، هذا هو أقسى ما في الحربِ يا نبض ، أنّها تقتل فينا الإنسان!

هناك دوماً استثناء يا نبض . . .

البعضُ حين يصعدون لا ينزلون ، وحتى إذا ترجّلوا نتشبّثُ فيهم بأظفار ذاكرتنا وأسنانها ، فمن فرط الحبّ يُصبح البعضُ نحن!

ما زلتُ أكره الحرب يا نبض ، وأقفُ ضدّها بكل ما أُوتيتُ من قدرةٍ على الرّفض ، أقفُ ضدّها لأني أعرف أننا مهزومون فيها منذ اللحظة التي خضناها ، مهزومون ولو انتصرنا!

مهزومون في إنسانيتنا على الأقل ، أو على الأكثر!

فما الذي سنعيش لأجله حين نخسر إنسانيتنا؟!

ولكنّي بالمقابل أعرفُ أنّ الحياة المغموسة بالذّل كالرغيف المغموس بالدّم لا يشتهيه أحد!

لهذا أنا في قلبي ضد هذه الحرب ، كلّ ضخة دم فيّ تلعنها ، وفي عقلي مقتنع بجدواها!

قد أبدو لكِ متناقضاً ، والتناقض أقلّ واجبٍ حين تضعني الحرب أمام خيارين ، أن أكون قاتلاً أو مقتولاً!

في السِّلم يا نبض يكمن الشيطان في التفاصيل ، أما في الحرب يغدو العقل شيطان التفاصيل ، نحاربه بمعوّذات الواقع ليسكت ونخوض حربنا حتى النهاية ، هناك تفاصيل لو فكّرنا بها لتوقفنا فوراً عن هذه الحرب ولكننا الآن لا نفكّرُ إلا ببنادقنا!

تأزُّنا غريزة البقاء ، إنّها الغريزة التي دغدغَ بها إبليسُ أبانا آدم فأقنعه أن شجرة المعصية هي شجرة الخُلد ومُلكٍ لا يبلى!

وهي الغريزة التي طاف لأجلها الملكُ السّومريّ جلجامش أرجاء الأرض يبحث عن الإلدرادو أو نبتة الخلود بعد أن فقد

صديقه أنكيدو ، صحيحٌ أن ملحمة جلجامش لا تعدو كونها أسطورة ، ولكنّها أسطورة كتبها البشر ، ولطالما كان الأدبُ ـ بغضّ النظر عن تفاوت مستواه فنّياً من عصر إلى عصر ـ يحكي هموم الناس ، ومشاعرهم ، وأحلامهم . لا أحد يكتب لمجرد أن يكتب ، سكبُ الحروف في كلماتٍ ، ورصفُ الكلمات في جُملٍ ليس غاية بحدّ ذاتها ، إنّها مجرّد وسيلة للبوح فقط ، فنحن لا نقول كلماتٍ يُصادفُ أنّها تحملُ أفكاراً ، إننا عندما نكتبُ نُلبسُ أفكارنا قميصاً لغوياً ليس إلا!

وعندما بحثنا عن الخلود في الجنّة كان من البديهيّ أن تستمر رحلة البحث عنه في الأرض!

حدّثتُكِ مرّةً عن ينبوع الشباب الذي حكى عنه هيرودتس ، كان هذا في القرن الخامس قبل الميلاد ، ولكن صدّقيني حين أقول لكِ أنّ الناس هم الناس في كل عصر ، ولا تستغربي أن البعض اليوم ما زالوا يؤمنون بوجود هذا الينبوع ، وينبشون الأرض بحثاً عنه ، بل استغربي إن كفّ الناس جميعهم عن الإيمان بهذه الخرافة!

أعودُ بكِ حيث كنّا قبل الحديث عن غريزة البقاء . . .

بالضبط حيث قلتُ لكِ : في الحرب يجب أن نخلعَ عقولنا!

وقتها قلتِ لي : العقول ليست قمصاناً نخلعها ونرتديها متى نريد

فأجبتكِ : حين نكفّ عن استخدام عقولنا نكون قد خلعناها فعلاً!

أما ما يجب أن لا نفكّر به هو إنسانيّة الآخر الذي نريدُ قتله كما يريدُ قتلنا!

حين نفكّر بهذا فقط نسعى جاهدين لتحقيق الأسبقيّة ، أما لو فكرنا لحظة أنّ المقاتل في الجبهة الأخرى إنسان أيضاً ، ويقاتلُ لأجل أفكارٍ يراها تستحق الموت من أجلها وإن كانت خاطئة في نظرنا ، إلا أنّه يؤمنُ بها إيماننا بأفكارنا التي نراها جديرة أن نموت لأجلها ، أو أن نقتُلَ!

هُنا تظهر فداحة الحرب ، وتفاهة النّاس ، الحربُ ليست إلا نقاشاً حاداً حول الأفكار والمعتقدات اتخذ المدافع لساناً ، والرصاص لغة حوار!

لو فكّرنا لحظة بإنسانيّة الآخر لتوقفنا فوراً ، لو فكّرنا أنّ المحارب على الجهة المقابلة أب وهناك أطفال ينتظرون أن يرجعَ إليهم ليركضوا ويعانقوه في منتصف الطريق ، وأنّ له زوجة تبقى تتقلبُ في فراشها طوال الليل ، القلقُ يقضم لحظات عمرها كفأرٍ نهم وَقعَ على كنزة صوف حتى يعود إليها ذات

هدنة! لو فكّرنا أنّ له أماً ودعته على العتبة والانتصارُ الوحيدُ في هذه الحرب بالنسبة إليها أن يعود إليها سالماً لتضمّه ، وما عدا ذلك هزيمة نكراء!

على المقلب الآخر من هذه الحرب يا نبض شاب ترك حبيبته تحلم بفستان زفاف ، حاكته خيطاً خيطاً بإبرة الانتظار والدّعاء ، وآخر ترك جامعته وأوقف مستقبله ليؤدي دوراً قبيحاً في نظرنا نبيلاً في نظره!

أعداؤنا بشرٌ مثلنا يا نبض . . .

وهذا هو الشيء الذي نتناساه لنخوض حربنا حتى النهاية . . .

نهايتهم ، أو نهايتنا ، أو نهايتنا معاً!

النّصر لا يُعزّي فاقداً عمّن فقد ، لو انتصرنا ماذا أفعلُ بنصرٍ لستِ فيه يا نبض ، من سيسُدُّ مكانكِ! في صدري فجوة لا يملأها إلا رأسكِ ، ولو اجتمعتْ نسوة العالم وألقين رؤوسهنّ على صدري دفعةً واحدةً لن يملأنه!

بي عطشٌ لا يرويه إلا أنتِ ، أنتِ ماء قلبي والقلوب لا تعرف التيمم يا نبض ، إمّا أن ترتوي بمن تحب ، أو تعطش حتى تجف!

بي جوعٌ لا يسدّه إلا أنتِ ، ما أسهل الجوع الذي يسدّه رغيف خبز ، أمّا الجوع الذي لا تسدّه إلا امرأة واحدة ، ولن

تزيده النساء الأخريات إلا تضوّراً هو الذي أخشاه يا نبض!

ماذا سأفعلُ بنصرٍ أمشي فيه قرب البحر وأشتاقكِ ولا أجدكِ ، ماذا سأقول ليدي حين تسألني عن يدكِ ، كيف سأقنع نفسي أن يوماً لا أتأملُ فيه اللون الأسود في عينيكِ هو يوم من أيام عمري وأنا الذي أرّختُ عمري بكِ! كل نهار لا تبتسمين لي في صباحه هو ليلٌ آخر مهما حاولتْ شمسه أن تقنعني بالعكس ، وكل ظهيرة لا ترتسم فيها غمازة صغيرة على خدّك الأيمن محاولة كونيّة للشواء ليس إلا ، وكل مساء لا تفكين فيه شعركِ وتلقينه على كتفيكِ دفعةً واحدة كنهر سقط من السماء عليكِ هو مساء آثم ، وكل ليل لا تقفلينه بـ«تُصبح على خير» هو وجع مفتوح ، وعمرٌ ضائع مني!

قالوا : من يربح معركةً ليس بالضرورة أن يربح الحرب

الحربُ كرّ وفرّ ، يومٌ لكَ ويومٌ عليك ، وهذا شيءٌ يعرفه الجميع ، ومن البداهة أن لا يكون محطّ نقاش نتوقف عندها ، ولكن الجدير بالتوقف عنده أنّ في الحرب معارك جانبيّة ، ولكل إنسان في هذه الحرب معركة يخوضها وحده ، هذه المعركة هي الحربُ كلها بالنسبة إليه!

معركتي الجانبيّة في هذه الحرب هي أنتِ!

أو لنقل أنتِ حربي كلها!

كل ما أقاتلُ لأجله هو أن تضع الحربُ أوزارها وقد بقيتِ لي ، فلو ربحنا الحرب وخسرتكِ فأنا منتصر مع الجماعة مهزوم في قلبي ووجودي!

النّصر وقتذاك نصرهم وليس فيه شيء يخصّني ، كل نصرٍ لستِ فيه هزيمة مهما حاول المنتصرون حولي أن يقنعوني بخلاف ذلك ، وحين يقيمون أعراس نصرهم سأكون أنا مأتماً على هيئة إنسان!

صدّقيني يا نبض حين أقول لكِ أننا نخوضُ حربنا جماعة ولكننا نقيسُ نتائجها أفراداً!

النّصرُ لن يُعيد ابناً ميتاً لأمه المهزومة بأعزّ ما تملك . . .

النّصر لن يكون أباً ليتيم . . .

ولا زوجاً لأرملة . . .

تماماً كما لن يكون حبيبة لي لو ربحنا الحرب وخسرتكِ!

قد تقولين لي : لا بدّ لكل حربٍ من خسائر ، وأنت بهذا المعنى كأنما تقول لي الكل في هذه الحرب مهزوم ، لأنه لا يوجد شخص إلا وقد فقدَ عزيزاً!

أجيبكِ : بالضبط هذا ما كان دأبي أن أقوله لكِ ، كلنا مهزوم

فحين نخسر معاركنا الجانبيّة لن يعوضنا النصر خسارتنا الفادحة تلك!

يا نبض أنتِ حربي كلها ولستِ معركتي فحسب ، إما أن أكسبكِ فأنتصر ، أو أخسركِ فأُهزم ، نعم في الأمر رائحة أنانيّة تفوح ، وأنا لا أخجل بهذا ، قد أكون خيّراً ولكني لستُ مثالياً إلى الحد الذي يجعلني أعيشُ للنّاس ، وأنسى أن أعيش لنفسي!

في الحرب يا نبض لا تُصغي لما يقوله المتحاربون بل انظري لما يفعلونه ، هناك دوماً أهدافٌ خفيّة يُغلّفها المتحاربون بأغلفةٍ نبيلةٍ كي يُقنعوا النّاس بجدواها! تماماً كما في النّص بُعدٌ آخر للكلام يُقرأ بين السطور للحرب أبعاد أُخرى تُقرأ بين زخّات الرصاص!

كانت حرب إسبارطة على طروادة نبيلة في ظاهرها ، فالشّرفُ أحد الأشياء التي يستميتُ النّاسُ في الدّفاع عنها ، كانت «هيلين» المرأة الفاتنة سبب تلك الحرب ، كانت متزوجةً من أخ ملك إسبارطة ، وأحبّتْ وهي تحته ابن ملك طروادة ، وهربت معه إلى مملكة أبيه ، فأعدّ الإسبارطيون جيشاً جراراً وركبوا البحر وتوجّهوا إلى طروادة ، ولما وصلوا ضربوا حولها حصاراً خانقاً ، وخرج ملك طروادة مع ابنيه ، البكرُ قائد

الجيش ، وولي العهد ، والذراع الأيمن لأبيه ، والأصغرُ عشيق هيلين ليسمعوا مطالب الإسبارطيين ، وينظروا كيف يمكنهم الفكاك من هذه الحرب ، واقترح عشيق هيلين أن يتبارز مع زوجها ، فإن قتله عاد الإسبارطيون إلى مدينتهم ، وإن قُتل يكون قد ثأر لشرفه .

لاقى هذا العرض استحسان زوج هيلين ، لأنه كان يرى أن خصمه لقمة سائغة . . .

ولكنّ أخاه الملك قال له : أوَتحسبُ أني جهّزتُ هذه الجيوش لأجل زوجتك الشّبقة ، لقد أتيتُ لأجل طروادة يا عزيزي!

أرأيتِ ، لكل حربٍ أهداف خفيّة هي في الغالب أسبابها الحقيقة ، وما أهدافها النبيلة المُعلنة إلا قناعاً لتبريرها ، وإنّي لأخشى أن تكون حربنا النبيلة كذلك!

تخيلي أن نستبدل بعد هذا كله جلاداً بجلاد ، وطاغية بطاغية ، وكأننا ثُرنا على يد الجلاد ولم نثُرْ على سوطه! طعم السّوط واحدٌ يا نبض بغضّ النّظر عن اليد التي تمسكه! أنا لا أُشككُ في أحد ، كل الذين أعرفهم نبلاءُ في الظاهر ، ولكن كما علينا أن لا نُسيء الظنَّ حدّ الوسوسة علينا أنْ لا نُحسنه حدّ السّذاجة ، وقد قالتْ العربُ قديماً : سوء الظنّ من حُسْن الفطِن!

أتذكرينَ يا نبضُ حين قلتِ لي : محظوظون أولئك الشُّعراء الذين عثروا على حبيبات جميلاتٍ ليكتبوا عنهنّ!

فقلتُ لكِ : بل الحبيباتُ هُنّ المحظوظات إذ تعثّرتْ بهنّ قلوب الشّعراء!

كنتِ بفطرتكِ في صفّ النساء!

فسألتني : عمّ سيكتبُ قيس بن الملوّح لو لم تكن ليلى العامريّة حبيبته؟!

وكنتُ بفطرتي في صفّ الرجـــال ، وبأدبي في صفّ الشّعراء

فأجبتكِ : كان سيكتبُ عن امرأةٍ أخرى ، وكنّا سنعرفها كما عرفنا ليلى العامريّة ، أما ليلى فكان سيطويها التّرابُ دون أن يدري عنها أحد ، شأنها شأنُ اللواتي لم يعبثنَ بقلوبِ الشّعراء!

لم يُعجبكِ جوابي وقتذاك ، وقلتِ لي بحدّة لم أعهدها في نبرة صوتكِ من قبل : إذاً الشّعراء صنعوا حبيباتهم؟

فقلتُ لكِ وشيء من حُمرة الغضبِ على خدّيكِ ، يزيدكِ فتنةً فوق فتنتكِ ، كأنها الشمسُ لحظة المغيبِ ضلّتْ طريق البحر إلى وجهكِ : الشّعراءُ لم يصنعوا حبيباتهم ، ولا الحبيباتُ صنعنَ شُعرائهنّ ، كل ما في الأمر أن الشّعراء خلّدوهُنّ!

يا نبضُ ، لم تكن العامريّة أجمل بناتِ القبيلة ، ولا أكثرهنّ سِحراً وفتنة ، ولكنّها كانتْ في قلب شاعرٍ جُنّ بها ، وامتطى صهوة جنونه يسابقُ بها في مضمارِ القصيدة ، فبدتْ لنا أنّها ملكة جمال القبيلة ، بينما الجميلات الأخرياتُ طوتهُنّ الخيامُ أحياءً ، والتّراب أمواتاً ، بينما كان عُمْر ليلى من عمر القصيدة ، والقصائد تعيشُ أكثر مما يعيش النّاس!

ولم تكن لُبنى أجمل بنت خُزاعة ، ولكنّ قيساً بن ذُريحٍ ألبسها تاج الشّعر ، وتوّجها على كل الخُزاعيّات!

ولم تكن فاطمة أجمل بنات عُنيزة ، ولكنّ الملك الضليل حين أنشدها :

أفاطمُ مهلاً بعضُ هذا التّدللِ
وإن كنتِ أزمعتِ صَرْمِي فأَجْمِلي
أغرّكِ مني أنّ حبّكِ قاتلي
وأنّكِ مهما تأمري القلب يَفعلِ

جعلها في عيوننا من الجمال بمكان لتستعبد قلوب الرّجال!

الأدبُ سيّد التّاريخ يا نبض ، وأداة من أدوات التخليد ، وما ينطبقُ على النّساء ينطبقُ على الرّجال ، فالسّطوة للأدب ، لا لجنس قائله!

لم يكن صخراً هو العربيّ الوحيدُ الذي ذهبتْ دماؤه هدراً ذات ثأر ، ولكنّه عن دون قتلى الثّأر نعرفه جيّداً لأن أخته كانت الخنساء . . . .

برأيكِ ، هل كنّا سنعرفُ صخراً لو لم تكن الخنساءُ شاعرة؟!

نظرتُ في عينيكِ وقد هدأتِ ، والحُمرة على خدّيكِ تلاشتْ شيئاً يسيراً ، ولكنّ جمالكِ ظلّ طاغياً ، وتابعتُ أُحدّثكِ مُتعمّداً أن أثأرَ منّي لكِ!

النّساءُ أيضاً خلّدنَ معشوقيهنّ ، فتوبةُ بن الحُميّر حبيبٌ مجهولٌ لولا أنّه وقع في قلبِ ليلى الأخيليّة ، فجرى في شعرها وتخلّد!

لستُ منحازاً إلى الرّجال لأنّهم رجال ، ولكن الأدباء في كل عصر كانوا أكثر من الأديبات ، ولا أتحدّثُ عن الكيف وإنّما عن الكمّ ، وإلا فالخنساءُ حضرتْ يوماً سوق عكاظٍ ، وأنشدت النّابغة الذّبيانيّ شعراً ، فقضى أنّها أشعرُ العرب ، ولم يكن بين المُتبارين امرأةٌ سواها!

الأمرُ أوسع من حبيبةٍ ومحبوب ، وعاشقةٍ ومعشوق ، الأمرُ يكمنُ في الأدبِ لا في الأديب! للأدب سطوة علينا أن نُسلّم بها ، وهذا كان دأبُ الأوائلِ يا نبض ، فعندما وفدتْ ابنةُ هرمٍ بن سِنانٍ على عُمر بن الخطّاب ، سألها :

_ما الذي أعطى أبوكِ زُهيراً حتى قال فيه مديحاً ما زالت تحفظه العرب؟!

- فقالت : نسينا ما أعطينا زُهيراً؟

- فقال عُمر : ولكن ما أعطاكم إيّاه زُهير ليس يُنسى!

وهرمُ بن سِنانٍ هو سيّدُ غطفان الذي أوقفَ حرب داحسٍ والغبراء ، التي دارتْ رحاها أربعين عاماً ، فقطفتْ من عبسٍ وذُبيان خيرة أبنائهما ، فدفع الدّيات ، وعقد الصّلح ، فمدحه زُهير بن أبي سُلمى ، وأجزل هرم له العطاء!

إنّي حين أذكرُ لكِ الخنساء وصخراً ، وليلى الأخيليّة وتوبة ، أُؤكدُ لكِ أنّي أقفُ في صفّ الأدب لا في صفّ الرّجال ، والأدبُ مع تقدّم السنين لم يفقد سطوته ، ولا قدرته على التّخليد!

بلقيسُ يا نبض لا تعدو كونها امرأة بعثرها انفجار حين أوقد النّاسُ للحرب ناراً ، كما بعثر نساء كثيرات غيرها ، ولكن بلقيس كانت حبيبة شاعر ، فعاشت ميتة ، بينما لم يزد الموتُ النساء الأُخريات إلا موتاً!

قلتِ لي وقتها مُبتسمةً : إذا مِتُّ في هذه الحرب ، هل سترثيني؟!

فقلتُ لكِ : إنّ حياتكِ عندي أغلى من مليون كتاب!

أنا أريدُ أن أعيشكِ لا أن أتذكّركِ

أن أتغزّل بكِ لا أن أرثيكِ

أن أنظر في عينيكِ فأثمل ولا يكون عندي متّسعٌ لأكتبَ ، أحبّ إليّ من كتاباتي كلّها ، وإنّ اسمي في بطاقتكِ الشّخصية أجمل من اسمي على غلاف كتابٍ فيه رثاؤكِ!

ما كان أحدٌ ليختارَ أن يفقد أحبابه ليكتبَ أدبه!

صخرٌ كان عند الخنساء أغلى من كلّ شعرها ، وهي لم تكن تكتبه وإنما كانتْ تبكيه شِعراً ، فنحنُ نبكي بالوسيلة التي تكشفُ أعمق نقطةٍ في جراحنا!

وكان توبة بن الحُميّر أغلى عند الأخيليّة من كلّ شعرها ، ولو كان بإمكانها أن تختار بين حياته وشِعرها ، لاختارتْ حياته دون تردد!

ولم يكن المجنونُ سعيداً أن ليلى العامريّة قد زُفّتْ لغيره فخسرها ، وربح الشّعر! ولكن عندما ركبَ أبوها رأسه وردّ كل شفاعات الذين جاؤوا مستشفعين له عنده ، لم يبقَ له إلا الشّعر ، كتاب خيبةٍ كبير ، يتعذّبُ بها وحده ، ويتلذذُ بها النّاس!

لو كان الشّعرُ يعنيه أكثر مما تعنيه ليلى ما ذهبَ يوماً إلى مضافةِ الرّجال حيثُ زوجها وقال له :

بدينِكَ هل ضـمـمـتَ إليكَ ليلى

قُـبـيل الصّـبحِ أو قـبّلتَ فـاها

وهل رفّتْ عليكَ قـرونُ ليلى

رفـيفَ الأقـحـوانِ على نَداها

فقال له زوجها : بما أنّك استحلفتني ديني ، اللهم إنّي قد فعلتُ!

فقبضَ قيسٌ على الجمر وخرّ مغشياً عليه!

لسنا كائنات طُفيليّة نقتاتُ أدبنا من دماء أحبّائنا ، ولكن حين تسرقُ منّا الحياة أعزّ ما نملك نتأسّى بأدبنا ، إننا وقتذاك نبكي لا نكتب ، ولكنّ الدّموع تأخذ شكل الحروف فيحسبُ النّاسُ هذا النّحيب كتابه!

أُريدكِ مـعي . . . ولي . . . وعندي ، أبيعُ لغـتي كلّهـا وأشتريكِ ، ملعونٌ كلّ حرفٍ سيخيطُ لكِ ثوباً من رثاء ، ملعونٌ كلّ نصّ يصيرُ قبراً لكِ ، ملعون كلّ كتابٍ يصير مقبرةً من الكلمات ، نزيلها الوحيدُ أنتِ!

دَعْكِ من ذا الآن ولا تعودي لمثله ، لا تذكّريني أن فقدكِ فكرة قابلة للحدوث ، إنّ الحديث عن فقدكِ مُرّ فعلاً ، فكيف هو طعم فقدكِ؟! حدّثيني أننا سننجو معاً ، وإن شئتِ حدثيني أننا سنموتُ معاً ، إنّي أختارُ هذا على أن أعيشَ يوماً واحداً

بدونكِ ، وثِقي أنّهم لو قتلوكِ فقد قتلوني معكِ ، كم مرّةً عليّ أن أُردد على مسامعكِ المعادلة الحسابيّة السّهلة التي أُرددها دوماً ، أنا ناقص أنتِ يُساوي لا شيء! أنتِ كُلّي يا نبض ، وحين يأخذوكِ منّي ، فهذا يعني أنّهم أخذوني منّي!

قلتِ لي مرّةً : يُشعلُ الرّجال الحرب وتكتوي بنارها النّساء!

كلامكِ صحيحٌ للأسف ، لو كان هذا العالمُ يُدار بعقول الرّجال وقلوب النّساء لكان جنّة كالتي فقدناها ذات شجرة محرّمة!

المرأة تقنعُ في الغالبِ بما تملك ، وتحاولُ أن تديره وتستمتع به ، أما الرّجال فيسعون دوماً للمزيد! عدم رضى الرّجال بالواقع هو الذي غيّر العالم للأفضل! لو رضينا باليابسة ما اخترعنا السّفن ولا الطائرات ، ولو رضينا بالدّواب ما اخترعنا السّيارات ولا القطارات ، لو رضينا أن نفقد أحبّاءنا ونحن ننظر إليهم يموتون أمام أعيننا لبقينا نعالجهم بالرُّقى والتمائم ، ولما كان الطبُّ بالشّكل الذي هو عليه اليوم ، ولكن للأسف عدم الرّضى لم يقتصر على الخير ، لم نرضَ بالسّيوف والرّماح ، فاخترعنا القنابل والصواريخ والراجمات ، لنهدم بها كل الأشياء الجميلة التي أنفقنا أعمارنا ونحن نبنيها!

الحربُ لعبة الرّجال يا نبض

منذ فجر التّاريخ وهم في سعي دؤوب لإمبراطورياتٍ أوسع
وأموال أكثر
ونساءٍ أجمل!

قرأتُ مرّةً قولاً لموسيليني ، أحد أشهر المحاربين الدمويين في التّاريخ ، قولاً يقول فيه : الحربُ بالنسبة للرّجال كالحمل بالنّسبة للمرأة!

معكِ حقّ ، لطالما كان إنتاج الحياة شأناً النّساء ، وإنتاج الموت شأن الرّجال!

الرّجالُ طمّاعون ، والطمعُ هو الوجه القبيحُ لعدم الرّضى الذي أُحدّثكِ عنه ، يريدُ الرّجالُ الأفضل دوماً ، حتى لو كان ثمن هذا الأفضل وضع حدٍّ لحياة الذين من حقّهم هذا الأفضل ، ففي البداية لم يكن هُناك جيوش ، وكان البشرُ عائلةً واحدة صغيرة ، لأمٍ وأب ، أمّ فاضلة ، وأبٌ نبيّ ، حاولا جاهدين أن يجعلا من هذه الأرض انعكاساً للجنّةِ التي فقداها ، ولكنّ الطّمع الكامن وراء كلّ الحروب اليوم ، كان وراء أوّل جريمة قتل حصلتْ على هذه الأرض ، كانتْ حوّاء تضع في كلّ مرّةٍ ذكراً وأُنثى ، وكان هذا تهيئةً من الله لتنظيم أول قانونٍ مصغّرٍ للزّواج ، وعندما كبر الأولاد كان الله قد قضى أنّ الذّكر يُحرّمُ عليه الزّواج من الأنثى التي وُلدتْ معه في ذات

البطن ، ولما كان قابيلُ وهابيل أكبر ابني آدم ، كانا أوّل بشريين وقعا تحت امتحان قانون الزّواج ، وكان هذا القانون يقضي أن يتزوّج قابيلُ أخت هابيل ، ويتزوّج هابيلُ أخت قابيل ، وكانت أخت قابيل أجمل من أخت هابيل ، فرفض أن يمتثل مدفوعاً بغريزة الرّجال «الحصول على الأفضل»!

هنا تدخّلت القدرة الإلهيّة التي كانتْ تُهيّء البشريّة لتنظيم الزّواج على علاقاتٍ أبعد في الدّم فيما بعد ، فأوحى الله إلى آدم أن يُقرّب كل من ابنيه قرباناً ، ومن قبل الله قربانه يتزوّج المرأة محطّ النّزاع ، وكان هابيلُ مزارعاً فقدّم حزمة قمح ، وكان قابيل راعياً فقدّم شاةً قربانه ، ووقف سُكّان الأرضِ جميعاً ينتظرون حكم السّماء في القرابين!

فأرسل الله ناراً أحرقت شاة قابيل ، وكانتْ هذه أول محكمة نُصبتْ في الأرض ، قضى بها قاضي السّماء لهابيل ، كانتصار طبيعيّ لأول قانون زواج أرساه سبحانه!

ولكن كما هو الحال اليوم ، لم يرضَ بعضُ من في الأرض بقسمة السّماء!

ثارتْ حفيظةُ قابيل ، وتهدّد وأوعد ، وأقسم أن يقتل أخاه ، وكان هابيلُ قويّاً ، ولكنّه كان مؤمناً إلى الحدّ الذي جعله يختار أن يكون مقتولاً على أن يكون قاتلاً ، وما زادتْ هذه الشّهامة قابيل

إلا غيّاً ، فأخذ فكّ حمارٍ ميتٍ ، وضرب به هابيل غدراً على مؤخرة رأسه ، فأرداه قتيلاً ، وكانتْ هذه أوّل جريمة قتلٍ وقعتْ في الأرض ، باعثها الطمع ، ومحرّكها سخط النّاس على عطاء الله!

النّظرُ لما في أيدي الآخرين يُفسدُ علينا متعة الاستمتاع بما في أيدينا ، لهذا كان الحسدُ دوماً وراء كلّ خطيئة ، وهو أوّل ذنبٍ عُصيَ الله به في السّماء ، إذ رفض إبليسُ السجود لآدم مدفوعاً بنار الحسد التي أكلتْ قلبه . وهو أوّل ذنبٍ عُصيَ الله به في الأرض ، إذ قتل فيه قابيل أخاه مدفوعاً بنار الحسدِ أيضاً ، الحسدُ سُمّ قاتل ، ولعلّه الشيء الوحيد المؤكد أنّه يفتك بالجنّ والإنس على السّواء!

كنتُ أعرفُ يا نبض أنّ هذه الحرب ستندلع ، لأني كنتُ أعرفهم جيّداً ، أغبياء إلى الحدّ الذي لن يحافظوا فيه على شعرة معاوية الواصلة بيننا وبينهم!

ولأني كنتُ أعرفنا جيّداً ، أعزّاء إلى الحدّ الذي لن نرضى فيه أن يصبح هذا الوطن حظيرة كبيرة ، ليس لنا فيها إلا كمشة علف ، وشربة ماء!

كنتُ في عقلي أعرفُ أنّهم سيجذبون هذه الشّعرة بقوّة حتى تنقطع ، وفي قلبي أتمنّى أن لا يفعلوا! لأنّي كنتُ أعرف إن فعلوا فستكون مذبحة!

رقابنا العارية بمواجهة سكاكينهم المشحوذة!
وعيوننا البريئة بمواجهة مخارزهم الحادّة!
ودماؤنا النّقيّة بمواجهة سيوفهم المصقولة!
وما كنتُ أخشاه وقع!

لقد حشرونا في الزّاوية كقطة وراءها أبناءها ثمّ حاربونا على شراستنا!

الحربُ التي أكرهها في قيمي ومبادئي وأخلاقي أريدها الآن بشدّة، فهي السبيلُ الوحيد للخروج من هذه الزّاوية، ولكن أتعرفين ما المرارة يا نبض؟

المرارة أنّي أفهمُ لماذا نُحاربهم ولكنّي لا أفهمُ لماذا يحاربوننا!

بديهيّ جداً أن ندفع حياتنا ثمناً لحرّيتنا، ولكن من غير البديهي أن يدفع الذين يحاولون قتلنا حياتهم ثمناً ليحتفظوا بقيودهم! العبيدُ يكرهون الأحرار يا نبض لأنّهم يذكّرونهم بعبوديتهم، لأنهم يُعرّونهم أمام أنفسهم، يريدون أن يُسكتوا هذا الصّوت الذي يُفسدُ عليهم الاستمتاع بعبوديّتهم!

عليهم أن يقتلوا مزيداً منّا ليكسرونا، وعلينا أن نموت بهذا الرّصاص الذي دفعنا ثمنه من قوت أولادنا، لأننا رضينا منذ

البداية أن نجلس على مقاعد المتفرجين ، ونترك لهم ملعب الوطن يسرحون فيه ويمرحون!

أسوأ ما في هذه الحربُ الكريهة أنّها السّبيلُ الوحيد ، وإن كنتُ بإنسانيّتي لن أُسامح نفسي أننا خضناها ، فإنّي بكبريائي فلن أسامح نفسي لو أننا لم نخضها!

لا تحسبي أنّي غيّرتُ رأيي الذي تعرفينه ، ما زلتُ أريدُ السّلام ، ولكنّي أريدُ سلام الأقوياء ، لا جُبن القطط التي تجلس على الأرض تحت مائدة الوطن ، وليس لها منها إلا ما يسقط غفلة من المتحلّقين حولها!

إنّهم أقوياء بأسلحتهم ، ولكننا أقوى بحقّنا!

والقوة لا تُلغي الحق وإن أنزلتْ خسائر فادحةٍ فيه!

وإنّهم إذ يربحون أولى المعارك إنّما يجعلون الحرب أصعب ، لأنّهم لا يُخلّفون وراءهم أيتاماً وإنما مشاريع ثأر

ولا يُخلّفون وراءهم أرامل وإنما أمّهاتٍ مكلوماتٍ يُرضعنَ أولادهُنّ كراهيتهم!

الضّعيفُ لا يبقى ضعيفاً ، والقويّ لا يبقى قوياً

النّاس يتبادلون الأدوار في هذا ، والدُّنيا دولاب لا يكفُّ عن الدوران ، من كان الأعلى سترينه غداً في الأسفل ، ومن كان في الأسفل سترينه في الأعلى ، ولو أنّ موازين القوى لا

تتبدل لبقيَ أوّل قويّ يحكم هذه الأرض!

الباطلُ قويّ في مظهره والحقّ قويٌّ في جوهره!

ونحن أقوياء رغم هشاشة ما نملك، وهم ضعفاء رغم مخازن أسلحتهم المتخمة!

نحن سكّان هذا الوطن وهم نزلاؤه

كنّا قبلهم وسنبقى بعدهم

هم يُحاربون للحفاظ على الحاضر الذي كسبوه على غفلةٍ منّا

ونحنُ نحارب لأجل المستقبل

وهذه الأرض تدور، ومن سُننها أن من يتطلع للمستقبل دوماً ينتصر!

تُهاتفيني يا نبض:

لنلتقِ في هذه الهُدنة التي أعلنوها

الهُدنة ليست إلا استراحة بين معركتين...

ولكن أتعرفين ما الجميل في الهُدنة التي يُفسد جمالها انتظار المعركة القادمة؟!

الجميلُ فيها أنّ القويّ حين يقبل بالهُدنة فهذا يعني أنّه لم يعد قويّاً بما يكفي

وأنّ الضعيف حين يفرضُ الهُدنة فهذا يعني أنّه لم يعد ضعيفاً إلى الحدّ الذي يمكن سحقه!

عُودُنا يشتدُّ يا نبض . . .

يشتدُّ لأنّ الإرادة لا تكسرها المدافع

ولأن صوت التكبير في مساجدنا أقوى من صوت طائراتهم

وثِقِي أن الأرضَ التي وقفتْ تتفرّجُ علينا ونحنُ نُذبح ليستْ صاحبة القرار النّهائيّ في هذه الحرب ، الكلمة الفصل في السّماء ، ومعايير السّماء تختلف عن معايير الأرض ، فالبقاء حسب معايير الأرض للأقوى ، أو للأقدر على التّكيّف كما يقول داروين صاحب النشوء والارتقاء ، ولكنّ البقاء حسب قانون السماء للأصلح!

وقد أخذوا أعواماً كثيرة ليكونوا الأصلح ، وما هذه الحرب إلا دليلاً صارخاً على أنّهم فشلوا!

ونلتقي يا نبض . . .

لا ألتقي بكِ بقدر ما ألتقي بي!

كأنّكِ أنا . . . وحين تغيبين عني لا يبقى منّي إلا هذا الجسدُ الذي يحسبه النّاسُ أنا!

وأُمسِكُ يدكِ . . . فأشعرُ أنّي أُصافحُ روحي ، مُذ عرفتُكِ وأنا أتحسسني في يدكِ ، هذه القطعة الصغيرة من اللّحم الخارج منها خمسة أصابع وطن ، وطنٌ كبير يصلحُ لإقامة دولة أكبر

من هذا الذي نتقاتلُ عليه ، وطني أنا وعاصمته أنتِ!

وأنظرُ في عينيكِ . . .

ويصبحُ الأسود سيّد الألوان ، كل أسود هو لون حداد إلا الأسود في عينيكِ عرسي أنا!

أهدأُ حين أنظرُ في عينيكِ . . . أهدأ كطفلٍ كان يبكي غياب أُمّه فضمّته!

لم أعد ذاك الشّرسُ الذي كنته البارحة وأنا أُقاتل ، كنتُ على استعداد تام أن أموت

أما الآن فأنا أريدُ أن أعيشكِ!

وهذا الكُحلُ في عينيكِ يُعزّيني . . . ثمّة شيء آخر في هذا الكون مثلي ، قريبٌ من عينيكِ ، يتمنى أن يدخل إليهما ولا يستطيع!

أزيحُ لكِ كُرسيّاً لتجلسي . . .

وأجلسُ قبالتكِ . . .

يضيعُ منّي كل الكلام الذي جهّزته لأقوله لكِ عندما نلتقي ، أُصبحُ صحراء من سُكوت ويُخيّم عليّ الصّمت!

عندما تحضرُ عيناكِ تذهبُ لغتي!

تسكتُ أصواتُ المدافعِ ، ويخرسُ الرّصاص

تصبحُ البيوت المُهدّمة قصائد ، والمقابر حدائق

ويصبحُ هذا الثّائر قطّاً أليفاً لا يُريدُ إلا لمسةً على رأسه من سيّدته!

تسأليني : ما بكَ؟

فأجيبكِ : اشتقتُ إليكِ!

تبتسمين ابتسامتكِ تلك ، ابتسامة النّصرِ التي تعلو ثُغور النّساء عندما يكتشفن أنّه لا يمكن الخلاص من فتنتهنّ ، وترتسمُ على خدّكِ الأيمن غمّازة صغيرة ، فيشهقُ كلّ شيء بي ، تُصبحين كلّكِ موضعاً للتقبيل ، وأُصبحُ كُلّي شفتين!

ثُمّ تُعزّيني قائلة : وأنا أيضاً اشتقتُ إليكَ!

فأقول لكِ : أن تشتاق لي امرأة بجمالك شيءٌ يجعلُ هذه الحرب على ضراوتها نزهة ، لأنّ لديّ شيء أحاربُ لأجله

فتقولين : أُترك الحرب جانباً ، أنتَ معي الآن ، ولستَ في خندقك!

- أنتِ خندقي ، وأنتِ حربي كلّها ، وإنّي حين أكون في الخندق تكونين معي ، صورتكِ في الجيّب الأيسر قرب القلب ، وحين يحتمون بدروعهم أحتمي بكِ!

- يا مجنون!

تقولينها لي وكأنّكِ تقولين ممتع أن أعرف أنّي تمكّنتُ منكَ

ثمّ تُلقين عليّ سؤالاً بدا لي أنّكِ كنتِ طوال الليلِ تحملينه في عـقلكِ وتنتظرين اللحظة التي تلقـينه عنكِ لكثـرة مـا أرهقكِ :

– هل تؤمن أنّ بإمكان الإنسان أن يعرف أنّه سيموت؟!

– ابتـسـمتُ وأنا أقـولُ لكِ : أرأيتِ أنّه لا فكاك من هذه الحرب ، أنتِ أيضاً لا يُمكنكِ أن تضعيها جانباً ، فـالحربُ يا نبض ليست شأن المحاربين وحدهم ، إنّها حرب كل من يُمتُّ إليهم بصلة!

– أعرفُ . . . أعـرفُ . . . يبـدو أنّه لا فكاك منها فـعلاً ، ومهما اختلقنا أحاديث متعمّدين أن نهرب من الحديث عنها نجد أنفسنا وقد عُدنا إليـها ، ولكن أجبني ، هل تؤمن بهـذا فعلاً؟

– لا أعرفُ يا نبض ، سمعتُ قصصاً كثيرة عن أشخاص تصـرّفوا قبل موتهم بفـتـرة ، أو لحظات ، تصـرّفـات لم يكونوا يتصـرّفونها في حـياتهم العـاديّة ، لهـذا أنا لا أُصدّق هذا ولا أُكذّبه ، أسمع عنه ، وأحياناً أرويه ، ولكنّي لا يمكن لي أن أجزم بأنّ هذا حقيقة

– أمّا أنا فحزمتُ أمري ، وصرتُ أؤمنُ بهذا فعلاً .

– ولِمَ؟

- أنا مثلكَ كنتُ أسمعُ عن هذا ، كنتُ أسمعه من بعيد ، ولا أؤمن به ولا أكذّبه ، مثلك أيضاً ، ولكنّي مُذ كُنّا آخر مرّة معاً ، رأيتُ هذا يحدثُ بأُمّ عيني ، فصدّقته ، حتّى أنّي صدّقتُ كل ما سمعته سابقاً ولو أنّي لم أره!

- ما الذي حدث يا نبض ، أحدٌ يخُصّكِ؟

- الجميعُ يخُصني ، والجميعُ يخُصّك أنتَ أيضاً ، لقد جعلتنا يد الجلّاد أُسرة واحدة ، وصرنا إخوة في السّوط!

- صحيح ، ولكن هل أهلكِ بخير؟

- نعم الجميع بخير ، أو لنقلْ الجميعُ أحياء!

- إذاً ما الذي حدث ، ومن الذي تكهّن بموته فصدقتْ كهانته؟!

- ليس في الأمر كهانة ، ولا عرافة ، كل ما في الأمر ما تعرفه أنت ، وسمعته قبلي ، وستسمعه الآن منّي ، إنّه شيء يُشبه الحاسّة السّادسة ، أتعرف ذلك الشّعور الذي يُصيب الأمّهات فجأة ، ينقبضُ صدرها ، ويخفقُ قلبها دون تفسير طبّي ، ثمّ يتبيّن بعد ذلك أنّ في تلك اللحظة بالذّات أصاب ابنها مكروه في بلدٍ آخر ، شيء لا يُمكن للعلم أن يُصدّقه حتى يُفسّره ، وحسبي أنّكَ تُؤمنُ به ، فأنتَ لم تكن يوماً مادّياً وإن كنتَ واقعيّاً ، تؤمنُ بهذه الأشياء ، وتُصدّقها ، وتعرفُ مثلي

أن للقلوب عالم آخر ، وأنّ للأرواح مساحة في هذا العالم أكبر من مساحة الأجساد المزروعة فيها!

- صحيحٌ يا نبض ، ولكن أتلاحظين أنّك تُؤكّدين ما دوماً أتّهمكِ به فتنفين التهمة عن نفسك ، إذ دوماً أقول لكِ : لو كنتِ ابنة رجل غير أبيكِ لكُنتِ ابنة الجاحظ لكثرة ما تستطردين ، تشبهينه بأسلوبكِ تماماً ، تفتحين موضوعاً ، وتقفزين إلى آخر ، وتتركين سامعكِ معلّقاً على حبال صوتكِ ، حتّى تغلقي حديثك الثّاني ، وتعودي إلى حديثك الأوّل ، فإذا بكِ تفتحين حديثاً ثالثاً! ليس هذا وقتُ ممارسة جاحظيّتكِ يا نبض ، أخبريني من الذي أحسّ بموته فصدقه إحساسُه؟!

- جارنا أبو عادل ، صاحب البقالة في القرية ، سبق أن حدّثتك عنه ، طيّب إلى أبعد حدّ ، في صوته دفء واعظٍ ، وفي كفّه حنان أب ، أذكر حين كنتُ صغيرةً كيف كنّا نأتيه ، فيستقبلنا كأننا رفقته لا زبائنه ، وكان يبيعنا بما معنا ، وقد اعتاد أن يضع في يد كلّ منّا حبّة «سُكّر فضّة» ، على قلة ثمنها كُنّا نرى أنّها جائزةً عظيمة ، وعرضاً تجاريّاً صار من حقّنا أن نأخذه كلّ مرّةٍ ندخل فيه دكّانه حتى لو كُنّا نُرافق أحداً دخل ليشتري ، ولكنّ هذا الطفل الكبير كان عنيداً إلى أبعد حد ، منذُ سنواتٍ طويلة جحصل خصامٌ بينه وبين أخيه على إرثٍ كان

أبوهما قد تركه لهما ، وكان أخوه جشعاً ، غصبه حقّه ، واستأثر بالقسم الأكبر من الإرث ، فما كان من أبي عادلٍ إلا أن قال له على مرأى من رجال الحيّ ومسمع : مات أخي يوم ماتَ أبي!

وتركه وخرج ، ولم يفتح قصّة الإرث منذ ذلك اليوم ، ولم يُكلّم أخاه أيضاً .

منذ أيّامٍ نهض أبو عادل باكراً على عادته ، ولكنّه لم يمشِ على الطريق الّتي حفظتْ خطواته في هذا التّوقيت من بيته إلى دكّانه ، ذهب إلى منزل أخيه ، وقرع الباب ، وعندما فتح أخوه الباب ، احتضنه على الفور كأنّه هو المذنب جاء يستسمح ، لا صاحب الحق جاء يغفر!

عانقه بجوع الأخوّة الذي يتضوّرُ له منذ سنوات ، وبعد حديث دار بينهما ، عاد من بيت أخيه إلى دكّانه ، وهو في الطّريق أصابته شظيّة صاروخ ألقته طائرة حربيّة ، فخرَّ صريعاً على بعد مئات من الأمتار عن بيت أخيه .

وقد قال لي أبي : إن أخاه بكاه على قبره بكاءً مُرّاً

وقال : جاءني قبل موته بلحظاتٍ ، وعانقني ، وقال لي : العمر أقصر من أن نقضيه في خصومة ، وإن كنتَ حرمتني حقّي فلا تحرمني بعد اليوم أخي!

قلتُ لكِ وقد اقشعرّ بدني ، وصرتُ قاب قوسين أو أدنى لأُؤمن بما تُؤمنين به ، هذا الشيء الذي تُسمّينه حاسة النّاس السادسة تجاه الموت : وهل أعاد أخوه المال لأبناء أخيه؟

- لا أعرف ، شغلني خبر موته عن الاهتمام بما بعده ، ولكن العِبرة في القصّة ، أنّي صرتُ أُؤمنُ بهذه الحاسة السّادسة حدّ اليقين!

بل وأزيدكَ من الشِّعر بيتاً ، شيء من هذا القبيل حدث في عائلتنا قديماً ، كنتُ في الخامسة من عمري حين قصّت جدّتي القصّة ، كنتُ صغيرة ولم أكن أعرف الموت بالشّكل الذي أعرفه الآن ، كان يأتينا زيارة كلّ شهرين أو أكثر ، يأخذ شيخاً متهالكاً ، أو عجوزاً احدودب ظهرها ، أو مريضاً يئس منه الأطباء!

كانت الحياة سيّدة الدار ، والموت ضيفنا العابر ، أما هذه الأيام فقد تبادلا الأدوار ، صار الموتُ سيّد الدّار

وبعد كلّ قذيفة تسقط لا نسأل : من مات؟

وإنما نسأل : من بقيَ؟!

كأنّ القاعدة أن نموت ، والحياة شيء شذّ عن القاعدة هذه المرّة ، وفي القذيفة القادمة لا يمكن لأحد أن يتكهّن من سينتصر ، الشّواذ أم القاعدة!

المهم لم يكن جدّي شيخاً متهالكاً ، وإنما كان صريع مرضٍ لم يستطع طبيب القرية الوحيد أن يُشخّصه ، ولا أحد يدري أساساً إن كان طبيباً حقاً ، كل ما يعرفه أهل القرية أنّه جاء ذات صباح وافتتح دكاناً على هيئة عيادة ، وصار النّاسُ يتداوون عنده .

مكثَ جدّي عاماً طريح فراشه ، لا يقوى على الحركة ، وذات أذان عصر نهض على غير عادته ، مشرقاً متورّداً ، دعا بثيابه وحطّته وعقاله وعكّازه .

ركضتْ جدّتي تحضرها وهي تظنّ أنّه شُفي

أخبرها أنّه ذاهب لأداء صلاة العصر في المسجد

وبعدما صلّى العصر عرّج على مضافة الرّجال عند المُختار ، ثُمّ مرّ في طريق عودته على المقبرة ، وقرأ الفاتحة لأمّه .

وصل إلى البيت قُبيل المغرب ، استلقى على فراشه متعباً كأنّه كان يمشي مُذ وُلد حتى الآن ، وها هو يجلس أوّل جلسة في حياته

سألته جدّتي : أينَ كُنتَ؟

أجاب وكأنّه طفل كبير : كنتُ عند أميّ

قالتْ له : وماذا كنتَ تفعلُ عندها؟

قال : اشتقتُ إليها

فتركته وذهبتْ لتُنجز أعمالها المنزليّة ، ثمّ عادتْ لتساعده ليتوضّأ ويُصلّي المغرب ، فوجدته قد مات!

- يا الله!

- هل حـزمتَ أمـركَ مثلي وصـرتَ تُؤمن بهـذه الحـاسّـة السادسة؟

- أُؤمنُ أنّ هذه الأشياء تحصل ، ولكن لا يُمكن تعميمها لأنّ قلّة من النّاس يمتلكونها!

- هذا صحيح ، ولهذا كانتْ حاسّة سادسة ، وشعوراً فوق مستوى المادّة ، ولو ملكها الجميعُ لصارتْ حاسّة عاديّة ، هذا الغموض الذي يكتنف الموت هو أبشع ما فيه ، أن لا تعرف متى تموت لتستعد

لتُصالح كلّ الذين خاصمتهم

لتضمّ كل الذين لم تشبع منهم بعد

لتزرع شجرة

لتُنجب ولداً يحمل اسم أبيك

لتعتذر لأمّك عن كلّ لحظة قلقٍ قضتها على العتبة تنتظرُ رجوعك آخر الليل!

- أتعرفين ، أحياناً ننغمسُ بالحياة إلى درجةٍ ننسى أن نلتفت لهذه الأشياء الصّغيرة ، ولكن لو تأمّلنا لوجدنا أن أشياءنا

الصّغيرة هي أشياؤنا الكبيرة ، لطالما أحببتُ التفاصيل يا نبض ، وكنتُ شغوفاً بها ، يقتلني أولئك الذين لا تلفتهم التفاصيل . . .

أولئك الذين يُعجبهم أيّ لحن . . .

وتُطربهم أيٌّ أُغنية . . .

ويستعذبون أيّ قهوة . . .

ويرويهم أيٌّ ماء . . .

ويُشبعهم أيّ رغيف . . .

وتُرضيهم أيٌّ وسادة . . .

ويُغيّر أفكارهم أيّ كتاب . . .

لا أُخفيكِ أنّي أغبطهم قليلاً ، هؤلاء يُمكن إرضاؤهم بيُسر!

ولكنّي لا أُريد أن أكون مثلهم ، أنا أستمتع بالتّفاصيل ، هذه الأشياء التي قد تبدو تافهة هي التي تهبُ الأشياء قيمتها . . .

يُمكنُ لأيّ رغيفٍ أن يسُدَّ جوعي ، ولكن رائحة الخُبز التي تنبعثُ من بيتنا حين تجلسُ جدّتي قبالة تنّورها والتي تخسأ أفرانُ العالم مجتمعة أن تأتي بمثله ،

هي التي تُحوّل الرغيف من قطعة خبزٍ إلى قطعة قلب ، ويجعلني أستمتعُ بدل أن أقتات!

حتى القهوة يا نبض . . .

البعضُ يعتقدون أنّ إعداد القهوة مجرّد إذابة البُنّ في الماء!

أنا أرى القهوة لُغة ، وإنّي لأقسمُ لكِ أنّي أستطيعُ أن أُميّز رائحة قهوة أميّ من بين مئة رائحة قهوة منبعثة تماماً كما يُمكنني أن أُميّز صوتها . . . كما أنّها في صوتها لا يُشبهها أحد ، كذلك هي في قهوتها لا يُشبهها أحد . . . لقد احتسيتُ قهوةً في منازل كثيرة ، في فنادق ومطاعم ومقاهي ، أغلبها كان قهوة فعلاً ، ولكن ثمّة شيء ناقص لم أجده إلا في قهوة أميّ . . .

السّر ليس في الماء . . .

ولا في البُنّ . . .

ولا في درجة الحرارة التي أُنيط بها غلي الماء

السّرُّ يمكنُ في أميّ!

لطالما كنتُ هكذا يا نبض . . .

لا ترضيني أيّ وسادة ، ولا يطربني أيّ لحن

هذا الشيء بقدر ما هو مرهق بقدر ما هو ممتع!

ببساطة لا يمكنني أن أرى كل الشّجر كائنات خضراء قويّة تقفُ على رجلٍ بُنيّة واحدة!

أنتبِهُ للتفاصيل ، وتشدّني الفوارق بينها . . .

هكذا أنا في كلّ شيء . . .

وعندما أقولُ لكِ أُحبُّ كلّ ما فيكِ فأنا أقولها على سبيل الحقيقة لا على سبيل مغازلة المجاز!

أُحبّكِ قطعة قطعة ، لأنّي تأملتكِ قطعةً قطعة . . .

لستِ امرأةً جميلة بالمُجمل أو المُعدّل ، بل أنتِ امرأة كلّ ما فيها جميل . . .

وحين أقولُ لكِ : عيناكُ جميلتان ، فأنا أعني تفاصيل كثيرة قد لا تلتفتين لها أنتِ!

لنبدأ من الخارج!

حاجباكِ أنيقان ، كأنهما برواز فخم للوحةٍ فاخرةٍ هي عيناكِ!

جيشٌ منتظِم من الشّعر ، مصطفّ بترتيبٍ مُذهل كأنّه في معركة أناقة!

عقدُ شعرٍ ناعم مشكوك باتقان ، اللؤلؤة جنب اللؤلؤة كما يجب أن تكون!

رمشاكِ حادّان كشفرةِ سيفٍ يقطعني إرباً من الذّهول كلّما رمشتِ!

جفناكِ شاطىء ممتد ، أتخيلني أبني عليه كوخاً صغيراً يتسعُ لاثنين . . .

أنا ، وأنتِ!

اللون الأسود قاتم . . . فيه لمسة حزن كأنّه خيمة عزاء ، ولمسة فرح كأنّه قاعة عُرس!

اللون الأبيضُ قرب اللون الأسود في عينيك ضدّان أنيقان ، كلّما نظرتُ إليهما حضرني قول الشّاعر :

ضدّان لمّا استُجمعا حسُنا

والضّدُ يبينُ حسنه الضّدُّ

ولستُ أدري أهوَ اللون الأسود الذي يهبُ اللون الأبيض نقاءه

أم اللون الأبيضُ هو الذي يهبُ اللون الأسود عمقه؟!

كمفاتيح البيانو!

أبيضٌ وأسود ، لا بُدّ أن يعملا معاً ليخرج اللحنُ أنيقاً

وهكذا هي عيناكِ ، مؤامرة من الجمال تُحاك بيد أكثر من طرف لانتاج فتنة عظيمة!

شفتاكِ مشتل ورد جوريّ!

الوردة تتكىء على الوردة في منظرٍ مهيبٍ من الرّقة

وحين تعضّين على شفتكِ السُفلى برفق ، تلك الحركة التي تجعلُ كل ما بي يشهقُ ، وأرتعدُ خوفاً على نعومة الورد المعضوض ، ولا أدري وقتها أأقفُ مع شفتيكِ ضدّ العضّة الحلوة تلك

أم مع العضّة التي أحبّها ضدّ الشّفة التي أحبّها؟!

هكذا أنا . . .

تارةً معك ضدّكِ ، وتارةً ضدّكِ معك!

خدّاكِ أبيضان فيهما نقاء الثّلج ، ورقّة الياسمين

وتارةً أخافُ على ثلج خدّيكِ من جمرة شفتيكِ

وتارةً أخافُ على جمرةِ شفتيكِ من ثلج خدّيكِ!

هكذا أنتِ . . . أضداد متناسقة!

مزيجٌ من متناقضاتٍ لا تجتمعُ إلا بكِ

جبينكِ سجّادة حبق

شعركِ حالك كأنّ الليل بيته ، وهو ضربتكِ القاضية التي تطيح كل شقراء في عينيّ!

تضحكين . . . فتخرجُ أصوات زقزقة العصافير الحبيسة في حنجرتكِ

وتقولين لي : أنتَ مجنون

فأجيبكِ : مجنونٌ بكِ

ثمّ نرجعُ للحربِ التي لا مفرّ منها!

الحربُ التي قلتِ لي عنها : مهما اختلقنا من الأحاديث لنهربَ منها ، سنجدُ خطوات الكلام قد وضعتنا في الدّرب المؤدّية إليها!

هذه الحربُ يا نبض إمّا أنها تُثبتُ بما لا يدعُ مجالاً للشّكِ أنّ في كلّ إنسانٍ أكثر من إنسان ، أو أنّي مُصاب بانفصام حادٍ!

الحــــربُ تطلقُ هذا الوحش الكـامن في داخلي ، وأنتِ تُروّضينه!

في الحربِ نغلي من منظر دمنا المسفوح ، ولا نبرد إلا بمقدار ما نسفكُ فيهم من دم!

هكذا نكتـشفُ فـجـأةً أنّ في داخل كلّ منّا «دراكـولا» صـغيـر! لا يتغـذّى إلا بالدّم ، مع فـارقٍ ضـئيل أن «دراكـولا» صاحب الأسطورة لا يخرجُ إلا لـيلاً ليـحصل على وجبتـه من الدم لأن ضـوء الشّـمس يحـرق جلدة ، بينمـا نحن «دراكـولا» بدوام كامل!

لقد كـدّتُ أؤمنُ بالهـامـة الذي اختـرعـهـا الـعـربُ ليـبـرروا ثأرهم!

قالوا أنّ الـهامة طائر يخرج من جسـد القتيل ، ويجلسُ عند قبره ، ويصرخ طوال الوقت : اسقوني ، اسقوني

ولا يسكتُ الهامة إلا حين يُؤخذ بثأر القتيل!

لتـبـدأ بعـدها هامـة أخـرى بالصـراخ ، وهكذا إلى أن يأتي عاقلٌ ويضعُ حداً لهذا ، تماما كما فعل هرم بن سنان حين أوقف حرب داحس والغبراء بين عبسٍ وذُبيان!

الثّأر يا نبض شربٌ مقنّعٌ للدم!

تقولين لي : أبدأ معك من نقطتك الأخيرة لأنها ما زالت ساخنة في ذهني!

أنتَ مثاليّ أحياناً ، والمثاليّة في النّظريّة شيءٌ تُرفعُ له القبّعة احتراما ، ولكن على النّظريّة أن تكون مرنة لتكون قابلةً للتطبيق!

وأنا إذ أُحيي فيك ضميرك الذي ما زال يرى في الآخر إنساناً رغم كلّ شيء ، إلا إنني لا أريدكَ أن تنسى أنّها حرب ، وإن لم تَقتُلْ ستُقتَلْ ، هذه بديهيّة الحرب الوحيدة ، وأن تموت وأنت واقف على قدميك في سبيل فكرةً ترى أنّها جديرة لتضحّي بحياتك لأجلها ، أفضل من أن تموت أعزلاً لتحافظْ على مثاليتك! وما دامت الحربُ قد وضعتنا أمام خيارين لا ثالث لهما ، فقد اخترنا الأصوب ، لأن انتظار الموت هو موتٌ آخر!

أمّا طائر الهامة . . .

خرافة العرب لتبرير ثأرهم

فهي نفس الفكرة التي طرحتها لي حين ضربتَ لي مثلا بحرب طروادة!

لا بدّ من إيجاد مبررات نبيلة لاقناع النّفس قبل الآخرين بجدوى الحرب!

والعربُ حين اخترعوا هذه الخرافة ، إنما قصدوا نُبل الفكرة ، وكأنهم يثأرون خدمة للقتيل ، فحين تشرب الهامة الدم تكفّ عن الصراخ ، ويرتاح الميّت في قبره ، وفي الحقيقة هم يثأرون لأنفسهم لا لقتلاهم! ففي مجتمع كان يرى الإحجام عن الثأر جُبناً وعجزاً ، كانوا يُثبتون بسعيهم المحموم للثّأر أنّهم أقوياء!

لا بُدّ لكل عملٍ من مبرر ، إن لم يكن موجوداً اخترعناه ، ولكن يكون العملُ نبيلاً بقدر ما تكون المبررات الكامنة وراءه نبيلة فعلاً!

أمّا عن الانفصام الذي تحسبُ أنّك تُعانيه ، فإن صحّتْ تسميته انفصاماً ، فهو ضروري لتستمر الحياة ، لا يمكن للإنسان أن يكون واحداً في كل المواقف ، هذه الوجوه المتعددة التي نرتديها بحسب الموقف هي سرّ الحياة!

من الطبيعيّ أن تكون معي غير الذي كنته البارحة في الخندق

الحياة تختار لنا الوجه الذي نرتديه!

أُنظرْ إلى اللبوة ، عندما تراها مع أشبالها في الأفلام الوثائقيّة ، تتأكد أنّها تشبه أمي وأمك! كائن مفعم بالحنان ، ثم انظُرْ إليها وهي تعدو وراء غزال وقد جاع الصّغار ، فإذا أدركته

نهـشـتـه بشـراسـة تجعلك تعـتـقـد للحظات أن هذه الشـرسـة يستحيل أن تكون تلك الرقيقة! ولكن لا بد من الأقنعة ليكبر الصغار وتستمر الحـياة . . . وهكذا نحن ، الوجوه الطّيبـة التي نرتديهـا بيننا لا تتنافى مع الوجـوه الشـرسـة التي نرتديهـا مع أعدائنا بقدر ما تكملها!

الحياة جملة متناقضاتٍ يا حبيبي!

قرأتُ مرّةً قولاً لسيغموند فرويد يقول فيه : شخصياتي المتعددة تركتني الآن بسلام!

لا أعرفُ ما إذا كان فرويد يدّعي المثالية ، وأنه يعيش حياته كلّهـا بوجهٍ واحـد ، ولكنّي أؤكـدُ لكَ أنّه كـذّاب! فـالوجـه الذي يرتديه مع مرضاه لا يصلح ارتداؤه مع أولاده ، أو أصدقائه ، إلا إن كان يؤمن أنّ كلّ النّاس مرضى وهو المُعافى الوحيد!

ولكن الذي يهمّني في الأمر أنّه يعترف أنّه قد امتلك يوماً أكثر من وجه!

وحتماً هو لم يختر أي وجهٍ من هذه الوجوه ، لقد فرضتها عليه الحياة كما فرضتها علينا جميعاً ، ولكن مسألة تخلّصه منها شيء له أن يدّعيه ، وليس عليّ أن أصدّقه!

- أنتِ ذكيّة يا نبض ، ومثقفة ، وهذا أجمل مستحضرات تجميلك!

الجمال الذي لا تُزيّنه الثقافة ، ولا يتوّجه الذّكاء ما يلبثُ أن يصبح عادة ، وما صار عادة ما يلبثُ أن يصبح مملاً!

عـقلكِ هذا هو الذي يجـعلكِ في قلبي كـالشّـعلة التي لا تنطفىء ، متّقدة دوماً ، مستعرة في داخلي كبركان لا يهدأ ، لا تكفّين عن إدهاشي ، وكمـا ترضين حواسي بجـمالك ، ترضين عقلي بثقافتكِ وذكائكِ!

تبتسمين . . .

هذه هي عادتكِ حين لا تجدين ردّاً

وكعادتكِ حين تبتسمين ترتسمُ غمّازةٌ على خدّكِ الأيمن

وكلّما ارتسمتْ تلك الغمّازة على خدّك أخالها تقول لي : قبّلني!

- بالمناسبة ، هل أخبرتكِ أنّي أُحبُّ ابتساماتكِ كلّها؟!
- وهل لي أكثر من ابتسامة؟
- طبعـاً ، ومن شكل ابتسامتكِ أعرفُ مـا الذي يجـول بخاطركِ!
- أخبرني عن ابتساماتي أيّها العرّاف

حسناً ، لكِ خمسُ ابتسامات!

ابتسامة حين أتغزّلُ بكِ ، وهي أحبّ ابتساماتكِ إليّ ، فيها براءة الخجل ،ونشوة المنتصر ، خجل يتولّدُ من طبعكِ ،

أنتِ حَيِيّة ، حتى عندما تقولين لي أُحبكَ ، تقولينها على استحياء ، ونشوة المنتصر تلك التي تتأكدين فيها أنّكِ المرأة الوحيدة في عينيّ ، وبقيّة النساء مشاريع غير مكتملة لنساء ، ويكنّ نساءً بقدر ما يُشبهنكِ!

ابتسامتكِ حين أحاولُ استفزازكِ ، أعرفُ حين ترتسمُ على محيّاكِ أني نجحتُ باستفزازكِ ، وأنّكِ تحترقين من الدّاخل ، ولكنك حتى وفي قلبك بركان من الغضب ، تنفثين ابتسامة!

ابتسامتكِ عندما تقرئين شيئاً مضحكاً

ابتسامتكِ عندما نتناقشُ في أمرٍ وأفشلُ في إقناعك ، ثمّ أُسلّم لكِ!

ابتسامتكِ حين ننظر لبعضٍ من بعيد ، كنتُ أيّام الجامعة أتعمّدُ أن أجعلكِ تريني من بعيد ، حتى ترتسم الغمازة على خدّكِ وتقولَ لي : صباحُ الخير!

تقولين لي : إحدى الأشياء التي لا تُعجبني في علاقتنا أنّي مكشوفة لكَ تماماً ، ولكن ما يُعزّيني أنّكَ مكشوف لي تماماً أيضاً ، لا أحتاجُ لأن تقول لأعرفَ ما بكَ ، من ملامحكَ أقرأكَ ، ولم يحدث مرّة أنّي قرأتك قراءة خاطئة! الأشخاصُ الذين لا يُجيدون التّمثيل طيّبون من الدّاخل ، وأنتَ ممثل

فاشل مهما حاولتَ أن تُتقن الدّور الذي تُمثّله ، وهذا أحد أسباب حبّي لكَ!

وكعادتنا . . .

تعودين بي إلى الحديث عن الحرب ، أو أعود بكِ!

وهذه المرّة أنتِ قائد القافلة ، توجّهين جِمال الكلام إلى مضارب الحرب!

وتقولي لي : إذا انتصرنا في هذه الحرب ، برأيك من سيكون لائقاً بحكم هذا الوطن؟!

أُجيبكِ : لا أحد من الذين تعرفينهم!

رجُل الحرب ليس بالضّرورة أن يكون رجل الدّولة!

السّياسة لها حِسابات أُخرى ، والذين يُديرون المعارك باقتدار ليس بالضّرورة أن يُديروا الدّولة باقتدار!

بل على الأرجح أنّهم لن يفعلوا!

كثيرٌ من الحروب التي دارتْ على مرّ التّاريخ كانتْ سبباً لفشل السّياسة!

فعندما يفشلُ السّاسةُ يختلقون الحروب! ويُصدّرون أزماتهم إلى الخارج ، وليس غير الحروب الخارجيّة يمنع الثّورات الدّاخليّة! إذ يجد الشّعبُ نفسه مرغماً أن يلتفّ حول حكومته!

عندما فشل نابليون بونابرت في السّياسة أشعل حرباً كبيرة ، انطفأتْ بهزيمته عند سور عكّا!

وعندما انتصر وينستون تشيرشيل في الحرب خسر أوّل انتخابات بعدها!

ليس للقائد المُنتصر في الثّورة أن يفرضَ نفسه حاكماً للدّولة ، إنّه بهذا المعنى يؤكّد أنّه كان يُقاتلُ لأجل مجده الشّخصيّ لا لأجل مجد الوطن!

الحربُ يا نبض تتوقفُ وقد تركتْ خلفها جروحاً نازفة يجب مداواتها ، الذين كانوا جزءاً من الحرب في الغالب لا يمكنهم أن يكونوا جزءاً من الحل! فالذي قضى سنواتٍ في المعارك سيحكم بعقليّة المُحارب ، لأنّه اعتاد أن يُفكّر ببندقيته لا بعقله ، والأوطانُ بعد الحُروب تحتاجُ إلى قلبٍ أوّلاً ثمّ إلى عقل ، وهي أغنى ما تكون عن البنادق!

وانظري إلى عُمر بن الخطّاب وخالد بن الوليد ، كل واحدٍ منهما أبدع في منصبه ، فعمر كان رجُل دولةٍ بامتياز ، وخالد كان رجُل حربٍ باقتدار!

عمر أصلح من خالد للدّولة ، وخالد أصلح من عمر للجيش!

ولو تولّى عمر قيادة الجيش ما كان ليديره بحنكة خالد

ولو تولّى خالد مقاليد الدّولة ما كان ليديرها بكفاءة عمر!

رغم أنّ عمر يعرف عن الحرب ، وخالد يعرفُ عن الدّولة ، ولكن المعرفة بالشيء شأن ، والدّراية شأن آخر!

والرّعية التي استقامتْ بدُرّة عمر ما كان لتسقيم بسيف خالد!

والجيشُ الذي استقام بسيف خالد ما كان ليستقيم بدُرّة عمر!

هذه الحياة اختصاصٌ بالدّرجة الأولى ، ورجُل كلّ شيء هو رجُل لا شيء!

حتى الأنبياء ، الصّفوة المؤيّدة بالوحيّ ، معصومة بالرّسالة ، وبما تبلّغه من الشّريعة ، ولا يمنعُ أن يكون في النّاس من هم أخبر من أنبيائهم في بعض دنياهم!

وما دام الحديثُ عن الحرب ، فالشّيء بالشّيء يُذكر . . .

عندما أنزل النبيّ الجيش في بدر ، نظر الحباب بن المنذر في المكان الذي اختاره النبيّ للجيش فلم يعجبه ، وكان رجلاً ذا درايةٍ بالحرب

فقال له : أهوَ منزلٌ أنزلكَ الله إيّاه ، أم هي الحربُ والمشورة والرّأي؟!

فقال النبيّ بكلّ تواضعٍ : بل هي الحربُ والمشورة والرّأي

فقال الحبابُ : أرى أن تكون آبار بدرٍ خلفنا فنشرب ولا يشربون

فنزل النبيّ على رأيه!

وعندما رأى مزارعي المدينة يُلقّحون النخيل بأنفسهم

قال لهم : لم تُأبّرون نخيلكم ، ألا تفعلُ الريح؟

فلم يُأبّروه في عامهم التالي ، ولم يحمل

ولّما راجعوه . . .

قال : أنتم أعلمُ بأمور دنياكم!

الذي يُبدعُ في مجالٍ ليس بالضّرورة أن يُبدع في غيره

تُقاطعيني كمن لمعتْ فكرة كالبرق في رأسه :

ولمَ عزلَ عمرُ خالداً من قيادة الجيش ، رغم حنكة خالد العسكريّة التي يتّفقُ عليها الجميع ، جيشه وأعداؤه ، وقد قرأتُ مرّةً أن خطط خالد العسكريّة ، كانسحابه يوم مؤتة ، ما زالت تُدرّسُ في الكلّيات العسكريّة الحديثة ، رغم تغيّر تركيب الجيوش ، وآلة الحرب؟!

- سؤالٌ جميلٌ يا نبض . . .

لم تكن حنكة خالد العسكريّة موضع شكّ عند عمر ، وإنّما العكسُ هو الصحيح ، كان عمر يرى أن خالداً جريء أكثر مما ينبغي! وأنّه بجرأته هذه يحملُ النّاس على ما يُطيقُ هو ، ولا يُطيقون هم!

وعندما قطع الصّحراء المقفرة التي لم يعبرها جيش من قبل ، في فترة تكاد تكون خيالية بالمفهوم الحربيّ في ذلك الوقت ، رأى أبو بكر أنّ هذه بطولة ، بينما رأى عمر أنّ هذا تهوّراً ، وأن لخالد أن يُغامر بنفسه ، ولكن ليس له أن يُغامر بالنّاس!

على أي حال هذا هو عمر ، له اجتهادٌ في كلّ أمر ، ولم يكن أبو عبيدة خياراً خاطئاً ، على يقيني أنّ مغامرة خالد وجرأته المفرطة ، وكأنّ له قلباً ميتاً ، هي التي صنعته ، وهي شيء لا يصبح القائد قائداً دونها ، ولكن كلّ إنسان ينظرُ للأمر من زاويته ، وقد كان عمر ينظر للأمر من زاوية أنّ في رقبته حياة النّاس!

أمرٌ آخر لا يجب إغفاله ، أمرٌ يتعلّق بتركيبة خالد وعمر النّفسيّة . . .

عمر شديد حازم ، وخالد كذلك ، هاتان شخصيّتان تتافران!

وإن كان كلّ منهما يعرف فضل الآخر ، ولكنهما كانا في بنائهما النفسي كقطبي مغناطيس متشابهي الشحنات ، يجلسان قرب بعض ، ولكنهما يتنافران إذا ما تواجها!

والإنسان يأنس دوماً بمن يكمله لا بمن يشبهه!

رقّة أبي بكر وحنانه كان يصلحها بأس خالد وقوته!

وبأس عمر وشدّته كان يصلحها رأفة أبي عبيدة وحنانه!

أبو بكر لا يكمله أبو عبيدة، لأنه يشبهه

وعمر لا يكمله خالد لأنه يشبهه

لهذا كان من الطبيعي أن يميل أبو بكر لخالد، وأن يميل عمر لأبي عبيدة!

- تحليل جميل لما حدث بين عمر وخالد، وإجابة تصيب التساؤل في مقتل، فيستحيل من تساؤل إلى رأي، ولكن عوداً على بدء، إن كنتَ ترى أنّ المُحارب لا يصلح لأن يكون رجل دولة، وأنّ النّاجح في الميدان ليس بالضّرورة ناجحٌ في السُّلطة، فإن كنتَ تخشى أن يستأثر المحارب بالسّلطة، فأنا أُفضّل أن يقع الذي تخشاه أنت، على أن يأتي لصوص الثّورات ليقطفوا ثمرها إذا أينعتْ نصراً!

- هذا شيءٌ قابلٌ للحُدوث لا شك، ولكنّي أتحاشى التّفكير فيه، يصعب عليّ أن أتخيّل أن كل هذه الجثث التي ارتضتْ أن تكون درجاتٍ في سُلّم يرقى فيه الوطن، فإذا بها درجاتٍ يرقى فيها لصوص الثّورات!

- هذا شيء علينا أن نُفكّر به الآن، لأنّ معركة الحريّة الحقيقية هي معركة بناء الدّولة لا كسب الحرب، وهذا لا يقل

ضراوة ولا أهميّة عن معركة الإطاحة بالمستبد ، ولكن المقلق أن هؤلاء لا تراهم الآن ، ولكن إذا ما انتهتْ الحربُ رأيتهم يتكاثرون كالطّحالب ، وكالطيور القمّامة التي تأتي لتغنم وجبتها من عرق الذين تجشّموا عناء الصّيد!

معركتنا الحقيقية بعد الثّورة هي الحفاظ على الثّورة . . .

يقول علي عزّت بيغوفيتش الذي تُحبّه : واقع كلّ ثورة بعد سقوط الدكتاتور أن يذهب الثّائرُ للنوم ، ويستيقظ المتخاذل من نومه ليستلم السّلطة!

أنتَ ترى أنّ هذا شيئا قابلاً للحدوث ، ولكنّ بيغوفيتش يرى أنّ هذه حتميّة!

وأنا لا أريدُ أن أعيش هذا اليوم إذا جاء ، يصعبُ عليّ مثلك أن أرى هذه الدّماء قد ذهبتْ هدراً ، وأننا بعد هذا كلّه خلعنا دكتاتوراً وثبّتنا آخراً!

- السّلاح في معركة بناء الوطن يا نبض هو الوعيُ لا البنادق ، النّاسُ ملّت الحرب ، وقد خاضتها لأنها وسيلة وليستْ غايةً في ذاتها ، والحزنُ أننا إذا بدأنا الآن في الحديث عن معركة بناء الوطن نُحبط النّاس ، وكأننا نُخبرهم سلفاً أنّ عليهم أن يربحوا هذه الحرب ليخوضوا الحرب التي بعدها ، وأنّهم إذا ربحوا هذه الحرب وخسروا التي بعدها سيعودون إلى المربّع الذي كانوا فيه قبلها!

- صحيحٌ أنّ معركة الوعي حربٌ ناعمة ، ولكن خسارتها أشدّ إيلاماً من خسارة الحرب الحقيقية!

ولكننا تعبنا . . .

أنا تعبتُ . . . وأنتَ تريدُ أن تعود إلى جامعتك . . .

والعاملُ يريدُ أن يعود إلى معمله . . .

والحِرفيّ إلى ورشته . . .

والزّوج إلى زوجته . . .

هذا حقّنا ، ولكن في المقابل واجبنا أن لا نُفرّط بما حققناه .

- معركة الوعي يا نبض ليستْ معركة الجميع ، إنّها معركة النُّخبة المثقّفة ، يستحيل حقن شعبٍ كاملٍ بالوعي ، وإن كان هذا غاية مُنيتي ، ولكن حتى هذه الدّول العظيمة التي ترينها يُديرها النُّخبة ، وهذه بديهيّة يمارسها النّاسُ منذ فجر التّاريخ ، وإن لم يعرفوا أنّهم يمارسونها ، لم يوجد مجتمع بشريّ إلا وكان فيه شكلٌ من أشكال السلطة ، بل يستحيل وجود تجمّع بشريّ دونها ، وعندما كان النّاسُ يقبلون بأن يكون بعضهم حاكماً وبعضهم محكوماً ، بعضهم يعمل بعقله وفكره وبعضهم يعمل بيده ومعوله ، إنّما كانوا يُقرّون بوجود هذه النُّخبة ويفسحون المجال لها أن تقود .

يقول فرويد : الجموع خاملة ، وعديمة الذّكاء ، ولا بُدّ من سيطرة الأقليّة لبناء الحضارة!

هذا قول قاسٍ في صياغته ، صحيح إلى حدّ بعيد في محتواه!

أنا لا أُوافق أن تُنعتَ الشّعوبُ بالخمول لمجرّد أنّ فيها نخبة تحكم ، ولكن سُنّة الحياة اقتضتْ مبدأ التفويض هذا ، روما القديمة كان فيها ملايين المحاربين الذين قامت على جثثهم إمبراطورية عظيمة ، ومن الطبيعي أن لا يذكر لنا التّاريخ أسماء الجنود ، بينما يحفظ لنا أسماء القادة ، وليس هذا مردّه إلى الخمول أو الغباء وإنما لأن المميزين في النّاس قلة ، وعندما تُفوّض الكثرةُ العادية النُّخبةَ المميّزة تكون قد مارستْ أعلى درجات الوعي .

سيغموند فرويد يُصوّر الأمر على أنّه يجب أن يكون فيه شيء من التّسلط ، والتّسلط والحضارة لا يجتمعان .

نحنُ بنينا حضارةً عظيمة أيضاً ، وأقمنا دولةً حكمتْ نصف هذا الكوكب ، والجميعُ كان لهم الفضل في هذه الحضارة العظيمة ، من أصغر جنديّ إلى أكبر قائد عسكريّ ، ومن صانع الورق ، وصانع الحِبر ، وباري القلم ، إلى المفكّرين والعلماء الذين خلّفوا هذه الثّروة الفكريّة ، ولكن من الطبيعي أن لا

نعـرف اسم باري قلم ابن خلدون ، وصـانع الورق للخـوارزميّ ، وبائع الدّواة لابن الهيثم ، ولكنّهم كانوا كثرةً تُرفع لها القُبّعة ، لأنّ كل شخص مهمٌ في مجاله ، وتتفيه البُسطاء لا يُعلي قدر النُّخبـة ، وإنّمـا النُّخبـة لا تكون نُخبـة إلا إذا اعـتـرفت بفضل هؤلاء البُسطاء .

الصّحابة الذين نعرف أسماءهم لا يتجاوزون المئة ، وهؤلاء هم النُّخبة التي قادت الجموع الطّيبة ، صحيحٌ أن هذه الجموع كـانتْ لتضلّ طريقها لولا هذه النخبة ، ولكن هذه النُّخبـة ما كانتْ لتحفر اسمها على صفحات التّاريخ بأحرف من نور لولا انقياد الجموع لها وحسن الظنّ بها ، فالنُّخبة لا غنى لها عن ثقـة الجمـوع ، ولهـذا عندمـا سـأل أحـد الخَوارج عليّـاً ابن أبي طالب : لماذا كان أبو بكر وعمر ينتصران وأنتَ لا تنتصر؟

فـقـال له : لأنّ أبا بكرٍ وعـمـر كـانا يحكمـان أمثـالي ، وأنا أحكم أمثالك!

- أين هذه النُّخبة إذاً ، إني أنظرُ حولي فلا أرى إلا نُخبة المحاربين ، وأنتَ ترى أنّ رجل الحرب شيء ورجُل الدّولة شيء آخر؟

- من الطّبيعي يا نبض أن لا تري إلا نُخبة المحاربين لأنّها حرب ، أو بالأحرى نحنُ نوجّه أنظارنا إلى المحاربين لأن الأولويّة

للحرب الآن ، ولكن حصر المحاربين بالذين يحملون البنادق هو تضييق لرقعة هذه الحرب ، واختزال لعدد المُحاربين!

الطبيبُ الذي يُسعفُ الجرحى هو محارب يخوض الحرب بمجاله واختصاصه ، وحاجتنا له في المستشفى أكثر من حاجتنا له في الخندق!

الشّاعرُ الذي يكتبُ قصيدة محارب

والكاتب الذي يكتبُ مقالة محارب

ونحن بحاجة إلى قلميهما أكثر من حاجتنا لبندقيتهما!

صاحب المخبز محارب يا نبض

والمزارع محارب

هؤلاء يخوضون الحرب في مجالهم . . .

هناك نُخبة لا شك ، أو على الأقل هناك وعي وإلا لما قامت الحربُ أساساً ، ولكن ثقي أنّه عندما تضعُ الحربُ أوزارها ستجدين رجالاً ونساءً بحجم المرحلة ، هناك أشخاص تُنجبهم الظروف ، ولكن دورنا أن نُميّز بين النُّخبة وبين لابسي عباءتها!

- كأنّك تؤمنُ بما قرأتُه مرّة لغسان كنفاني :

«لا تُصدّق أن الإنسان ينمو ، لا إنّه يولد فجأة ، في لحظةٍ ينشقّ صدره عن نبضٍ جديد ، مشهدٌ واحدٌ يطوح به من سقف الطفولة إلى وعر الطّريق»!

- أُؤمنُ بهذا إلى حدّ بعيد . . .

لو تأمّلتِ حالنا قبل هذه الحرب وبعدها ستكتشفين أنّ هذا ما حدث لمعظمنا

أنتِ كنتِ تخافين من لون الدّم يا نبض ، ولكنّكِ حضنتِ طفلاً نازفاً وناولته للمسعفين ، وهذا شيء لم تكوني تتخيلين أنّه بإمكانك فعله ، الحربُ التي قتلت فينا أشياء كثيرة ، قتلتْ خوفنا من أشياء كثيرةٍ أيضاً!

أنا أيضاً لم أكن قبل الحرب أعتقد أنّ بإمكاني قتل عصفور ، كانتْ الحياة عندي شيئاً مُقدّساً ، حتى حين أتناول اللحم كنتُ أُجاهد نفسي أن لا أُفكّر أن هذا اللحم لأرواح مهدورة!

وقد حدّثتكِ عن هذا مرّة ، فضحكتِ ملء صوتكِ وقلتِ لي بسخرية : يا حسّاس!

أُنظري إليّ الآن ، لقد أنجبتني هذه الحربُ مقاتلاً ، هكذا وُلدتُ فجأة من رحمها شخصاً يُمكن أن يقتُلَ بلا رحمة ، والغريبُ أنّي لا أشعرُ بوخزة ضميرٍ حتّى . . . كنتُ في بداية الأمر أُفكّر بما اقترفه ، أمّا الآن فقد اعتدته ، صار القتل طقسنا اليومي جميعاً!

تعرفين أبا راشد صاحب المخبز ، في الخامسة والخمسين من العمر ، أو هكذا كان عندما اندلعت الحرب .

أبو راشد جميلٌ كسنبلة ، أبيضٌ كدقيق ، دافىء كنار الحطب ، وطيّب كرغيف!

هو آخر شخصٍ كنتُ أتخيّل أن يُصبح مقاتلاً ، لو رأيته الآن لأصابكِ الذّهول ولما عرفته ، في الخندق وثّاب كليث ، جسور كأنما ولدته أمه بين قذيفتين ، أوّلنا إذا هاجمنا ، وأثبتنا إذا هُوجمنا!

ثمّة لحظات لا نعود بعدها كما كنّا قبلها!

لحظات نُولد فيها فعلاً . . . حقيقةً لا مجازاً

ولادة كاملة لا حظّ للكِناية فيها!

وقد حدث هذا كثيراً من قبل . . .

كل من عرف حمزة بن عبد المطلب في الجاهليّة ما كان ليتخيّل أن هذا ما سيصبحه في الإسلام ، صائد الأُسود كان من شِبه المستحيل أن تُروّضه فكرة!

عاشق الخمر والنّساء كان من شبه المستحيل أن يصير عابداً كأرقى ما يكون!

ولكن عندما جاءت لحظة ولادته خرج من رحمها إنساناً آخر . . .

كان عائداً من رحلة صيد ، على محيّاه أثر وعثاء السّفر ، وعلى ثيابه أثر مشقّة الطريق

وصل إلى الكعبة كعادة القرشيّ إذا كان على فراق مع مكة!

وفي تلك اللحظة شاهد قريشاً وقد أنزلت صنوف العذاب بالمسلمين العُزّل

فقال لأبي جهل : باسلٌ ومغوار أنتَ يا أبا جهل ، كيف لا وأنتَ تُقاتل رجالاً بلا سلاح

فقال له أبو جهل : لأنّهم يُظاهرون هذا السّفيه

فقال له حمزة : ومن أسفه منكم وأنتم تحرمونه حقّ الكلام

فقال أبو جهل : محمدٌ مفترٍ وكذّاب

فضربه حمزة بقوسه ، وشجّ رأسه وقال له : رُدّها عليّ إن استطعتْ ، أنا على دين محمّد ، أقولُ ما يقول!

لم يكن فعل حمزة هذا حميّة جاهليّة ، وإنّما كان كلّ شيءٍ في أعماقه ينتظرُ هذه الولادة!

فاتّجه من فوره إلى النبيّ وقال له : يا ابن أخي ، عندما أجوبُ الصّحراء في الليل أعرفُ أن الله أعظم من أن يُوضع بين أربعة جُدران!

تُقاطعيني قائلة : وعُمر أيضاً وُلد فجأة!

لم يكن أحد في مكّة يتوقع أنّ الذي كان يصنعُ صنماً من تمر بيديه ، فيعبده في النّهار ويأكله آخر الليل ، سيصبح عمر

مفكك أكبر إمبراطوريتين في التّاريخ ، فارس والروم!

أن ينتقل شخص من هذه التّفاهة إلى هذه العظمة شيء يجعلني أُؤمن أنّه من الممكن أن يكون للإنسان ولادة ثانية

كما قلتَ : ثمّة لحظات لا نعود بعدها كما كنا قبلها!

وإن كان حمزة ابن لحظة ظُلم

فإنّ عُمر ابن الكلمات!

آيات هزّته من الدّاخل ، أذابته وأعادتْ صقله ، فخرج من تحت يديها الفاروق الذي نعرفه!

عندما علم بإسلام أخته جُنّ جنونه ، وذهب إلى بيتها شيطانه يأزّه على الشرّ أزاً ، ضربها وأسال دمها ، ثم انهال على زوجها يضربه ، ولمّا رأى منظر الدم على وجهها رقّ قلبه

وأمسك صحيفة من القرآن ، فنزعتها أخته من يده ، وقالت له : لا بدّ أن تغتسل!

فلما اغتسل أخذ الرّقعة فإذا فيها :

«طه ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى ، إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ، تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ، وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى»

أمّا إذا كنّاً سنحاكم هذا العالم بحضارته ، فإنّه اليوم مهزوم بإنسانيته ، فقد تحضّرنا في الشّكل وتخلّفنا في المضمون!

حق النقض الفيتو تخلف يا نبض ، لأنّه يُمكّن خمس دولٍ من التّحكم برقبة بما يزيد على مئتي دولة أخرى ، فيمكن للبشرية أن توافق على فعل أمر ، ثمّ تقرر دولة واحدة من الخمس أن ترفض ، إنها بهذا المفهوم تقول لبقية دول العالم : شكراً لتصويتكم ، عودوا إلى منازلكم فإنّ هذا الأمر لن يتمّ!

هناك دول تدّعي الحضارة وهي تستعمرُ شعوباً أخرى تراها متخلّفة ، تسرق خيراتها ، وتنهب ثرواتها ، وتُغذّي حروبها الدّاخليّة كي ينشغل النّاس عنها!

هناك دول تختلق الحروب لتبيع الأسلحة ، وهناك دول عظمى تتعمد أن تطيل عمر الأزمات كي يبقى السّوق مفتوحاً!

هناك شركات أدويةٍ عملاقة تخترع فايروسات ، ثم تعمل على إنتاج لقاحات لها ، فإذا نجحت ، نشرت الفايروس بين النّاس ، وباعتهم الأدوية!

هناك بنك دوليّ لا يُسلّف الدول الضعيفة إلا إذا تدخّل في مناهج تعليمها ، وعاداتها ، وثقافتها . . .

هناك أمين عام للأمم المتّحدة يتقاضى راتباً ضخماً ليقلق بعد كلّ مجزرة يرتكبها قويّ بحق ضعيف!

Twitter: @ketab_n

الهندكية وإن كانت بذاتها ضعيفة وقد زاد في ضعفها كونها ديانة أمة مغلوبة ، إلا أنها على رغم ذلك كله بقيت مستولية على السواد الاعظم من أهالي القطر لغفلة الحاكمين المسلمين . وأنه بسبب استيلائها على جو القطر الهندي وبسبب كون التعليم والتربية الاسلامية غير كاملة بين المسلمين أنفسهم لم يتسن لمعظم مسلمي الهند أن يكونوا أصحاء في عقيدتهم كاملين في إسلامهم راسخين في ثقافتهم وتهذيبهم ، كما عساهم أن يكونوا لو أنهم عاشوا وسطاً إسلامياً خالصاً .

وفي القرن الثامن عشر انتزعت من أيدي المسلمين حتى تلك السلطة السياسية التي كانت أكبر عماد للحضارة الاسلامية في الهند . فكان ـ أولاً ـ أن تفرقت حكومة المسلمين وانقسمت إلى ولايات صغيرة . وتبع ذلك سيل جارف من المرهتة[١] والسيخ[٢] والانكليز ، أتى على أكثر تلك الولايات الصغيرة واحدة بعد أخرى . وشاء القدر بعد ذلك أن تنتقل أزمة الحكم والأمر في هذه البلاد إلى أيدي الانكليز . فلم يمض على ذلك قرن واحد حتى أصبح المسلمون محكومين في الارض التي كانوا حكموا فيها وسادوا على طول القرون . وبقدر ما امتد الحكم الانكليزي واتسعت سلطته ، غدا ينزع من أيدي المسلمين بقدر ذلك تلك القوى التي كانت الحضارة الاسلامية قائمة بفضلها في الهند . فاتخذ

---

(١) المرهتة (Marhattas) قوم من الهنادك القاطنين في جنوبي الهند اشتهروا بميلانهم الى الفتن والحروب .

(٢) السيخ (Sikks) قوم من غير المسلمين القاطنين في البنجاب ، عرفوا بسذاجة الطبع وقوة الأبدان .

لا يكون الإنسان متحضّراً إذا بكى لأجل قطّةٍ تُدهسُ في الشّارع قرب منزله ، ولا يرفّ له جفن لأشلاء النّاس الذين سحلتهم دولته!

الأخلاق لا تتجزّأ!

الأخلاق ليست ثياباً نخلعها ونرتديها متى نشاء ، إمّا أن نكون مع القتل أو ضدّه ، بغض النّظر عن هوية القاتل والمقتول ، ولكن أن نكون معه في بلدٍ وضدّه في آخر ، فهذا انتقاء واستنساب ، والحضارة مبدأ لا استنساب!

تقولين لي : اتفقنا أنّ المدنيّة شيء ، والحضارة شيء آخر ، وبما أنّ المدنيّة تشمل الحياة المادّية للإنسان ، والحضارة تشمل الحياة الفكريّة والمعتقدات ، ألا يمكن اعتبار الدّين جزءاً من الحضارة ، لأنه بالأساس جملة أفكار ومعتقدات ينشأ عنها بعد ذلك منظومة من القيم والسلوكات؟!

- هذا صحيح تماماً يا نبض

- حسناً ، ألا ترى معي أنّ نسبة التّدين زادت عند النّاس في هذه الحرب؟

- هذا طبيعيّ يا نبض ، لأنّ الحرب تكشف للإنسان مدى ضعفه ، وهو يتوجّه للتديّن ليرمم ضعفه وعجزه بقوّة إله قادرٍ وقويّ يؤمن به

Twitter: @ketab_n

إلى المدارس والكليات الانكليزية لكي تنقش في ألواح قلوبهم وأذهانهم الصافية نقوش العلوم والفنون الافرنجية .

كان ذلك في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وكان المظهر الاوربي إذ ذاك أن كانت المادية قد بلغت هناك أوج كمالها ، وكانت العلوم التجريبية (Science) قد تم لها الانتصار على الدين (Religion) ، وكانت النظريات القديمة في السياسة والاجتماع والاخلاق والاقتصاد قد بطلت وقامت مقامها النظريات الجديدة تحت إشراف الفلسفة والعلوم الحديثة . وتولدت فى أوربا حضارة خاصة نهض بنيانها كاملاً على تلك النظريات الجديدة . وهـذا الانقلاب العظيم وإن كان قد طرد الدين وطرد المبادىء المبنية على هدايته عن شؤون الحياة العملية طرداً كاملاً ، إلا أن العقيدة الدينية قد كان لها مقام في دنيا الفكر والشعور إلى العهد القريب ، ولكن قامت الآن حرب في وجهها أيضاً . وان العلوم التجريبية وإن لم يأت أي علم منها ببرهان — يمكن أن يدعى برهاناً — في نقض النظرية الإلهية لهذا الكون ، إلا أن أصحاب تلك العلوم غدوا مستنفرين من تصور الوجود الالهي وأعداء للنظرية الالهية ، وذلك بغير برهان أو حجة علمية ، وإنما صدروا في ذلك عن طبعهم ومزاجهم فحسب . ولأنهم هم الذين كانوا يقفون موقف الزعامة العقلية والعلمية في العالم شاع بتأثيرهم مرض النفرة من الإله (Theophobic) كالعدوى المنتشرة . فأفكار الوجود الإلهي واعتقاد هذا الكون شيئاً وجد من تلقائه ويجري

والمحتمون إما بسلطان قيصر أو كسرى ، دمّروا هاتين الإمبراطوريتين ، وأقاموا مجدهم!

هذه ظاهرة اجتماعيّة حدثتْ لا يمكن لأحدٍ أن يُنكرها ، وإن كانتْ أسباب هذه الظاهرة محطّ أخذٍ وردّ ، ولكنّها حدثتْ فعلاً ، فما هي وسائل الإنتاج التي تغيّرتْ وكانتْ سبباً في قلب المجتمع العربيّ رأساً على عقب؟

هل تغيّرت وسائل الحرب؟

السّيوف بقيتْ هي السّيوف ، ولكنّ الذي تغيّر هو عقيدة حامليها!

هل تغيّرت أدوات الزّراعة؟

المحاريث هي المحاريث ، والمعاول هي المعاول ، أصلاً الزراعة كلّها كانتْ على نطاق ضيّق ، وبقيت كذلك ، فلم تتغيّر أساساً ، فضلاً أن تكون قد غيّرت المجتمع!

هل تغيّرتْ الصناعة؟

هل أقام العرب المصانع ، والشركات العملاقة؟

لم يقل أحد بهذا يوماً

المجتمع إذاً تُغيّره الأفكار لا وسائل الإنتاج!

والإنسان يرتقي أو ينحطّ بما يؤمن ويعتقد ، لا بما يزرع ويصنع ويتاجر!

Twitter: @ketab_n

والرّوح التي يؤمنون أنّها نتاج المادّة ، أثبت الإسلام أنّ العكس هو الصحيح ، لأنّ الروح الجديدة ، والعقليّة الجديدة هي التي أنتجتْ ابن الهيثم ، والخوارزمي ، وجابر بن حيّان ، وابن بطوطة ، وابن خلدون ، وسيبويه ، والخليل ، والآلاف الذين لا يمكن حصرهم ولا عدّهم

النّاسُ تصنعهم الأفكار لا الأشياء!

وحين يرى ماركس أنّ الدّين يمدُّ الطّبقة العاملة بالرّاحة في ظلّ العقبات البائسة ، حيث يُسلّون أنفسهم بما ينتظرهم بعد الموت ، إنما يفترض أنّ الدّين شأن الفقراء ، فعندما يفقد الإنسان المادّة يتعزّى بالروح!

وكأنّ الإيمان سلعة رخيصة وليس عقيدة غالية

إحدى مشاكل ماركس الكثيرة هي التعميم!

يأخذ حادثة خاصّة ويجعلها معياراً يقيسُ به كلّ شيء

إنّه يحاكم الدّين كلّه منذ فجر التّاريخ الشّاسع الذي لا يعرفه ، بحقبة قصيرة يعرفها ، ويتّخذ من الكنيسة الكاثوليكيّة مقياساً يحاكم الدّين كلّه بسلوكيات الكنيسة في تلك الحقبة!

صحيح أنّ الكنيسة ارتكبتْ الرّزايا الأخلاقيّة والسّلوكيّة ، ولكن العقل السليم يقضي محاكمة الكنيسة لا إنكار الدين ، فإذا حصلت أخطاء طبّية نُحاكم الأطباء ولا نُغلق المستشفيات!

Twitter: @ketab_n

وإذا كانتْ الكنيسة قد تبنّتْ خرافاتٍ على أنّها حقائق علميّة ، كذّبها العلم بعد ذلك ، فالحلّ يقتضي تغيير الطّبقة الدّينية المتخلّفة ، لا هدم الدّين كلّه

فعندما يحصل خطأ في تطبيق أيّ نظريّة ، هذا لا يعني أن النّظرية خاطئة ، إلا إذا جاء التطبيق ترجمة فعليّة للنّظريّة ، فإذا كانتْ الأديان السماويّة كلّها تُحرّم الزّنا وزنى المتديّنون فهذا لا يعني أن نهدم الدّين ، وإنّما نحاكم هؤلاء على تطبيقهم الخاطىء لنظريّتهم الصحيحة

وبالعودة إلى أنّ الدّين شأن الفقراء ، فماركس نفسه لا يمكن أن ينكر أنّ رجال الكنيسة كانوا أثرياء ، فكيف نحلّ هذا التناقض؟!

قد تقولين لي : ولكنّ رجال الكنيسة لم يكونوا متديّنين حقاً ، ولكن الدّين كان طريقاً سهلاً وممهّداً نحو الثراء الفاحش!

فأجيبكِ : هذا صحيح ، فلمَ لم يُقلعوا عن التّدين بعد أن حققوا منافعهم ، خصوصاً أن مراكزهم الدينيّة تمنعهم من تحقيق أكبر قدر من الملذات التي يحققها الآخرون

ثم دعينا من هذا . . .

هل يعرف ماركس أنّ كثيراً من المسلمين الأوائل كانوا أثرياء ، بل كانوا فاحشي الثّراء ، ولم يمنعهم هذا من اعتناق الإسلام ، واعتناقه في تلك المرحلة المبكرة من عمره كان يجعل

Twitter: @ketab_n

المسلم محطّ نبذ في مجتمعه ، وهذا لم يمنعه من أن يبدد ماله في سبيل ما يؤمن به!

أبو بكر كان يشتري العبيد ويعتقهم

وعندما جاء عمر بنصف ماله ممنياً نفسه أن يسبق أبا بكر ، وجد أنّ أبا بكر قد جاء بماله كلّه! وعندما اشترى عثمان القافلة وباعها لله ، كان يُكذّب ماركس قبل أن يولد بأن الدّين ليس شأن الفقراء!

نصمتُ قليلاً . . .

وأنظرُ في عينيكِ . . . أعرفُ هذا اللون الأسود جيّداً عندما يقتنع بفكرة محدّثه ، وأنتشي فرحاً أنّي قد أقنعتكِ ، وأنتشي أكثر أنّ امرأة جميلة تجلس على الطّاولة أمامي ، يدها بيدي ، صغيرة كأنّها راحة طفلة ، ناعمة كباقة ورد ، دافئة كأنّها رغيف فارق وهج التّنور منذ لحظات . . . .

أشُدُّ عليها فتنتبهين ليدي ، وتضعين يدكِ الأخرى على يدي ، وتصبح يدي حبيسة بين يدكِ ويدكِ!

أريدُ أن يتوقّف الزمن ، وتُصاب الأرض بالشلل ، وتتوقف عن الدّوران ، ويغمضُ الوقت عينيه عليّ وينساني معكِ!

Twitter: @ketab_n

أرفعُ عينيّ إليكِ

أتأمّلكِ قطعةً قطعةً . . .

فمٌ صغير كوردة جوريّة

أنفٌ أنيق كوردة فلّ

خدّان ناعمان كوردة ياسمين

عينان جذّابتان كأقحوانة

وجهٌ كباقة

وكلّ ما فيكِ يجرجرني لأعترف ، فأقول لكِ : أحبّكِ

تسكتين لحظة ، وأرى دمعاً حبيساً في عينيكِ ، تغرورقان ولا تمطران ، ولكنّ الدّمع يهطل في صوتكِ ، فتقولين لي : عِدني أني إذا مِتُّ أنّكَ ستتزوج وتكمل حياتك ، وتنجب بنتاً جميلة وتسمّيها باسمي ، كي تُذكّركِ بي دوماً!

ولا تعود عيناكِ قادرتان على اعتقال دموعك أكثر ، يسيلُ الدّمع من عينيكِ ، وينحدر على خدّيكِ ، في منظرٍ مهيب كأنّه جنازة عظيم . . .

أنزعُ يدي من بين يديكِ ، وأمسحُ الدّمع عن خدّكِ ، وأقول لكِ : لا أريدُ لأحدٍ أن يُذكّرني بكِ . . .

أريدكِ أنتِ . . .

كل بنتٍ لن تكوني أمّها لا حاجة لي في إنجابها!

Twitter: @ketab_n

لا أريدُ لأحدٍ أن يحمل اسمكِ ، أريدكِ أن تعيشي وتحمليه ، وإن كان سيكون لي زوجة على هذه الأرض فستكون أنتِ ، وإن كان سيكون لي أولاد فستكونين أمّهم!

إذا متِّ فأنا ميّتٌ معكِ ولو بقيتُ بعدكِ!

لا شيء يُثبتُ أنّي حيّ إلاكِ

الجثثُ لا تصلح للزواج يا نبض ، وأنا بدونكِ جثّة هامدة

لم يعد يمكنني الرّجوع بي إلى الذي كنته قبلكِ

لم تعد أيّ امرأةٍ تصلح أن تكون زوجة ، إما أن تكوني أنتِ زوجتي أو لن تكون امرأة غيركِ

هذا هو الشّيء الوحيد الذي يمكنني أن أعدكِ به

فإن كنتِ حريصة على أن يكون لي بنت فعليكِ أن تعيشي لتكوني أمّها

إذا غادرتني تكونين قد جعلتني قبراً ، ووأدتِ كلّ أولادي بي

تضعين يدكِ على يدي التي ما زالت على خدّكِ

وتقولين لي : أحبّكَ

هذه هي المرّة الأولى التي لا تقولينها لي على استحياء ، هكذا كلمةً صارخة ، لا تمتدُّ إليها أصابع خجلكِ ، جريئة لا تطالها يد استحيائكِ تريد خنقها ، فتخرج منكِ خافتةً ليس فيها إلا رمق ضعيف من حياة استطاع أن يفلت منكِ!

Twitter: @ketab_n

وتنظرين في ساعتكِ . . .

وتقولين لي : لقد تأخّر الوقت ، عليّ أن أعود

شيء ما في داخلي يقول لي لا تترك يدها

وكل شيءٍ بي يريدكِ أن تبقي

وتغادرينني . . .

أجلسُ مُسمّراً مكاني أرقبكِ تبتعدين

كـالسّـيف المزروع في لحـمي ، نسـيتُ ألم دخـوله ، ولطول الوقت الذي مكثه بي ألِفَه لحمي!

وها هو الآن يُنزعُ رويداً رويداً . . .

كلّ خطوة تبتعدين فيها عنّي وجع

كلّ خطوة تأخذكِ مني سيفٌ يُنزع منّي ويؤلمني أكثر

وأنا جالس هنا بلا حول ولا قوة

أُشيّعكِ بنظراتي . . .

ويأخذكِ من عينيّ مفترق الطريق على النّاصية

وتغيبين . . .

شمسٌ أَفَلَتْ ، وقمر انخسف!

وكُلّي ظلام . . .

أجلسُ مـعـتـمـاً إلا من قـبس ضـوء خـافت أراه حين أشمّ رائحتكِ في يدي ، وأغادرُ أنا في إثركِ

Twitter: @ketab_n

ليتَ الطريق من رمل كي أضع قدميّ على آثار قدميكِ

أحاولُ أن أجتهد وأمشي حيثُ مشيتِ

أعودُ إلى بيتي خائباً كجنديّ مهزوم لم يبقَ له شيء يُقاتل من أجله ، فحين لا تكونين معي أغيبُ عنّي!

وفي الطريق إلى البيت أُراجع ما دار بيننا من حديث

كلّ الكلام تلاشى ، ولا يرنّ في ذاكرتي إلا قولكِ : عِدني أني إذا متُّ أن تتزوج وتكمل حياتك!

هل أصابتكِ لعنة الحاسة السادسة يا نبض؟

لم تقولي لي هذا من قبل ، أو لعلّها المرة الأولى التي تقولينها وأُحسُّ بوجعها

أتذكّرُ أبا عادلٍ وجدّكِ ، وكل الذين قصصتِ لي كيف عرفوا أنهم سيموتون . . .

شيء ما في داخلي يخبرني أننا لن نلتقي مجدداً

أُسكِتُ هذا الصوت ، أخنقه بكلّ ما أوتيتُ من قوّة ، وأفكّرُ بالبنت التي لن أُسمّيها باسمكِ لأنّكِ ستكونين أمّها!

أتخيّلها نسخة مصغّرة منكِ

وأغمضُ عينيّ وأتخيّل لون عينيها الأسود كعينيكِ

ولا أريد أن أفتحهما إلا عليكِ

الفصل الثّاني

طُبول

الذّاكرة

تُقرع

أطوي الآن صفحة الحرب يا نبض . . .

قـاتلَ الله هذه البنادق ، أخـذتْ أحـبـابنا الـذين نعـرفـهم ، وأوجـدتْ لنـا أعـداءً لا نعـرفـهـم ، هذا هو أحـد رزايا الحـرب يا نبض ، أن تقـتلي شـخـصـاً لا تعـرفـينه ، أو يقـتلكِ شـخصٌ لا يعرفكِ ، ولو التقيتما تحت سماءٍ أُخرى غير سماء هذه الحرب لربما كنتما صديقين!

أطوي صفحة الحرب ، وأعودُ بكِ إلى قريتنا . . .

لا تقولي لي : تقصد ما تبقّى منها!

لأنّي قـررتُ أن أعـود بكِ إليـهـا وهي على الحـال التي تعرفينها ، أقصِدُ التي كنتِ تعرفينها . . .

مكانٌ صغير في جغرافيته ، كبيرٌ في تاريخه . . .

ولطالما كان التّاريخ والجغرافيا نقيضين!

إذا تضاءل التّاريخ اتّسعت الجغرافيا!

لهـذا بالضّبط صارت الأندلس تاريخاً ، لأنّها لم تعد بين أيدينا جغرافيا!

لا تضـحكي من جاحظيّتي ، الاستطراد لعبتكِ ، ولكثرة مجالستي لكِ أعديتني!

أرجعُ بكِ إلى النّاس ، لأنّ العرب قديماً قالوا : الدّيار بأهلها وإذا ما كانت الدّيار بأهلها ، فإنّ قريتنا بيضاء كحليب الرّعاة في الصباح!

الرّجال فيهم مسحة حنان رغم صلابتهم

والنساء فيهن مسحة فتنة رغم قلة مستحضرات التّجميل

والصبيان شياطين ، ولكننا كنّا نتركهم على سجيّتهم لأننا كنّا نعرف أنّ ما ينتظرهم كفيل بتأديبهم!

لا أعرفُ لماذا وأنا أُحدّثكِ عن القرية لمع في ذهني وجه عامر!

لا تضحكي ، وتقولي لي : سترجع بي إلى القرية من نافذة مجنون!

لا بُدّ لكل قرية من مجنون يا نبض!

بدونه لا يكتمل المشهد ، ولا تستقيم القرية!

ولا تتعجبي إذا قلتُ لكِ أنّ المجنون على قناعة تامّة بأنّه عاقل ، وأنّه يُسايرنا كما نسايره ، ولذات السبب أيضاً ، لأنّه يرانا مجانين!

يروي جبران قصة خرافيّة ، وما دام الحديثُ عن المجانين فلا بأس بشيء من الخُرافة

يقول : جاءت ساحرة شريرة إلى إحدى الممالك ، وقرأتْ على بئر المملكة تعويذة تقضي أن يُصبح كل من يشرب من البئر مجنوناً ، فشرب النّاس جميعاً إلا الملك والوزير ، ثمّ إن النّاس اجتمعوا وقرروا عزل الملك والوزير لأنهما مجنُونَيْن ، وتجمهروا في ساحة القصر منادين بالعزل ، فما كان من الملك إلا أن طلب قدحاً من ماء البئر ، فشرب وناول وزيره ، وصارا مجنونيْن كبقيّة النّاس ، وأُقيمت الأفراح في الرّعية ابتهاجاً أن الملك والوزير قد عادا إلى عقليهما!

الجنون لا يرى نفسه مجنوناً يا نبض ، وإنّما يرى نفسه فريداً ، ويحاول أن يستمتع بفرادته تلك!

والمجانين على درجةٍ متفاوتة من الجنون كالعقلاء تماماً!

لهذا قالوا : الجنون فنون!

سأقول لكِ شيئاً مجنوناً ولا تضحكي :

يكفي الجنون شرفاً أنّ غيره لا يُغني عنه!

قلتُ لكِ : لا تضحكي

في جعبتي أشياء كثيرة ، فخبّئي شيئاً من ضحكك لما هو آت . . .

لم يخلُ مجتمع من مجنون كما قلتُ لكِ آنفاً

وفي تاريخنا من المجانين ما يكفي فلا أجدُ نفسي مضطراً لأبحث لكِ عن مجانين الأمم الأخرى!

هؤلاء صاروا خالدين بينما اندثر ملايين العقلاء ، والسبب هو أنّ النّاس تناقلوا ذكرهم ليس من باب الفكاهة فحسب ، هؤلاء في المجتمعات كالملح في الطهو ، القليل منه يصلح الطعام ، والكثير يفسده!

مجتمعٌ بلا مجانين هو مجتمع مثير للشفقة تماماً كمجتمع كلّه مجانين!

أخبرتكِ مرّة عن هنبقة ، هذا الرّجل تحفة يا نبض ، ولا تضحكي إذا أخبرتكِ أنّه إحدى شخصيّات التاريخ التي أتمنى أن ألتقي بها

أقولُ لكِ للمرة الثّانية : لا تضحكي

هنبقة هذا حكاية ، لا يشبهه في جنونه أحد . . . عموماً كما قلتُ لكِ من قبل : المجانين غير قابلين للاختزال ، كلّ واحدٍ منهم أنموذج فريد لا يتكرر في مجنون غيره ، على عكس العقلاء تماماً ، قد تجدين من عاقلٍ آلاف النسخ الكربونيّة ، ويمكن لنسخة واحدة أن تحلّ مكان بقيّة النُسخ!

هنبقة هذا بلغ منه الجنون مبلغاً ، وخشي ذات يوم أن لا يعرف نفسه ، فصنع قلادة من خزف وعلّقها برقبته كي يعرف

نفسه ، فأرادوا ممازحته ، فنزعوا قلادته وهو نائم ، فلّما استيقظ رأى القلادة في عنق أخيه ، فقال له : يا أخي أنتَ أنا ، فمن أنا؟!

بالمناسبة ، لم يكن هنبقة عالة ، كان يعمل ويكدّ ويحصّل رزقه . . .

قلتُ لكِ : في كلّ مجنون نفحة لا توجد في آخر!

كان يعملُ راعياً ، وإذا وصل إلى المرعى جعل الغنم السمين حيث العشب الغضّ الطريّ ، والغنم الهزيل حيث العشب اليابس

ولما سُئل عن هذا قال : لا أُصلحُ ما أفسده الله!

هكذا هم المجانين ، تجدين لهم رأياً في كل أمر ، وعلى طرافة هذا الرأي وخفّته ، وإثارته للضحك أحياناً ، إلا أنه رأي فريد . . .

أجملُ ما في المجانين أنهم لا يتبنون آراء المجتمع الذي يعيشون فيه ، تجدينهم يحرصون على هويّتهم الثّقافية ، يريدون أن يُثبتوا أنّهم مجانين ، وأنّهم لا يشبهوننا!

صدّقيني ، إنّ حرصهم على التمايز عنّا كحرصنا على التمايز عنهم ، بل هو أشدّ!

وأعتقدُ أنّكِ لو ناديتِ أحدهم : يا عاقل

لثارت حفيظته مما تثور حفيظة أحدنا إذا نُوديَ : يا مجنون!

يقول آينشتاين يا نبض :

الفرق بين العبقريّة والجنون بسيط جداً ، وهو أنّ العبقريّ يعرف جيّداً الحدّ الذي يقف عنده قبل وقوعه في الجنون!

الجنون إذاً عبقريّة متطرّفة!

والعباقرة أشخاص مارسوا الجنون فعلاً ، ولكنهم ملكوا حكمة التّوقف قبل الوقوع بالجنون ، أو لعلّهم لم يملكوا الجرأة الكافية لتخطي العبقرية إلى الجنون ، أما المجانين فتركوا عبقريّتهم على سجيّتها ، فنبذناهم!

أجمل ما في المجانين أنّهم لا يقفون عند حدّ ، يأخذون ما يرغبون به بالوسائل المتاحة بين أيديهم دون الالتفات لأيّة اعتبارات ، ودون إشغال عقولهم ، التي لا نعترف بها ، بما سنقوله عنهم!

أبو غبشان كان أخاً لهنبقة في الجنون ، ولكنّ أبا غبشان على ما يبدو لم يُقنع قومه بأنّه مجنون فعلاً ، وعندما لم يقتنعوا مارس جنونه بتطرّف ، ليثبت لهم هوّيته وانتماءه!

كان أبو غبشان من خزاعة ، وكان أمر ولاية الكعبة في الجاهليّة قديماً ، قبل الجاهليين الذين تعرفينهم ، في خزاعة ، وقد وسّدت خزاعة لأبي غبشان ولاية الكعبة ، فمرّ على قُصي

بن كلاب في الطائف ، فوجده يشرب خمراً ، فباعه ولاية الكعبة بزقٍ من خمر!

برأيي كان أبو غبشان أعقل من الذين أوكلوا له ولاية الكعبة!

إن كان المجانين ملح المجتمع ، فعلى المجتمع أن يكون أعقل منهم لأنّه إذا وضع مصيره بأيديهم سيصيبهم ما أصاب خزاعة من أبي غبشان!

ولعلّ هذه أغبى مبادلةٍ حصلتْ في التّاريخ ، ونحنُ حين نتندّر على المبادلات الخاسرة نقول : كمن باع بقرةً بسطل حليب!

أبو غبشان باع ولاية الكعبة بزقّ من خمر

فلماذا لا نحفظ له جنونه ، ونضرب به المثل ، بدل أن نستدلّ ببائع بقرة ليس له وجود!

ثمّ ما أدراكِ ، قد يكون هذا البائع قد عاش يوماً فعلاً ، ولكننا حفظنا الحادثة ونسينا مجنونها ، أو بطلها

أجل بطلها . . .

لماذا على العقلاء أن يستأثروا بالبطولة وحدهم؟

ألا يوجد في المجد متّسعٌ للمجانين؟

هذه عنصريّة عقليّة ، وتحزّب غير مبرر ، بدليل أننا ننظر إلى صاحب البقرة على أنّه مجنون ، وإلى صاحب سطل الحليب

على أنّه عاقل ، ولكنّكِ لو تأمّلتِ في الأدوار لبدا لكِ صاحب البقرة بطلاً وإن كان أخرقاً ، سعى لحاجته الحاضرة ، لربما لم يكن في البقرة حليب لحظتذاك وكان يحتاجه على الفور ، أو لربما كان بليداً ، أو لربما أراد أن يتخلص من البقرة بأيّ شكل ، الأمر قد يكون أشبه بتبيض الأموال ، عليكِ أن تُضحّي بجزء كبير من مالكِ لينظفَ الباقي! أو لربما لفّق العقلاء قصّة سطل الحليب هذا له ، قد يكون العاقل غصبه بقرته واختلق القصّة ، بأي حال حتى لو أن تلك المبادلة قد حدثتْ فعلاً ، فهذا يعني أن العاقل كان نصّاباً ، فجنون النّاس ليس مبرراً لاستغلالهم!

أتحدّاكِ أن تذكري لي مجنوناً واحداً كان لصاً ، أو سكّيراً ، أو خائناً ، دائماً تجدين فيهم مسحة طيبة ، وبساطة مذهلة ، بينما كل الرزايا كانتْ دوماً حرفة العقلاء!

لو تركنا المجانين لجنونهم ما أظهروا منه إلا قليلاً ، بعفويّة وخفّة ، ولكن العقلاء يستدرجون المجانين لممارسة جنونهم بتطرّف!

عجل بن لجيم كان من مجانين الأعراب ، وقد جلس يوماً مع عقلاء قومه ، فأخذوا يذكرون أسماء أحصنتهم ، وألحّوا عليه بالسؤال : ماذا أسميتَ حصانكَ؟

فلما ضاق بهم ذرعاً قام إلى حصانه وفقأ عينه
وقال لهم : سمّيته الأعور!

قد تضحكين من فعله ، وتقولين إنّه مجنون فعلاً ، وأنا لا أنكر أنّه مـجنون ، ولكن لماذا لا ننظر إلى فـعله هذا على أنّه ظاهرة احـتـجـاج ، كـأنّه يقـول للعـقـلاء : لماذا يجب أن يكون للحصان اسم؟!

وليس الجنون حكراً على الرّجال يا نبض!

عرف العربُ مجنونات كثيرات ، فالجنون لا يرتبط بالنوع ، بقدر ارتباطه بنهج ، إنّه فلسفة قائمة بذاتها ، واتجاه ثقافيّ علينا احترامه أو على الأقل الاعتراف به ، إنّه ظاهرة اجتماعيّة علينا أن نتـوقّف عندها وندرسـهـا ، تماماً كـمـا ندرس بقـيّـة الظواهر الاجتماعيّة التي ينتجها العقلاء ، لماذا على علم الاجتماع أن يدرس التّطرف ، أو التسوّل ، أو البـغـاء ، أو عـمـالة الأطفال ، أو تفكك الأسرة ، ولا يدرس الجنون!

كـون الجنون على نطاق ضـيّق في النّاس هذا لا يعني أنّه غير جدير بالتّوقف عنده ودراسـته ، ولا أعني بدراسته على أنّه حالة مرضيّة ، وإنما على أنّه ظاهرة اجتماعيّة!

ريطة بنت عـمـرو بن كـعب كـانت امـرأة خـالـصـة الجنون ، وكانتْ ذات حِرفة ، مبدعة في مجالها ، تأتي ما يعجز العقلاء

أن يأتوا به ، كانتْ تغزل القطن والصوف بدقّة متناهية أدهشت العرب ، وكانتْ إذا انتهتْ من غزلها نقضته ، فذهبتْ جهودها أدراج الرّياح ، ولا تتعجبي أنّ العقلاء حين لم يحفظوا حقّ ريطة ، حفظه لها القرآن!

أجل القرآن يا نبض . . .

﴿ولا تكونوا كالتي نقضتْ غزلها من بعد قوّةٍ أنكاثاً . . .﴾

والتي نقضتْ غزلها هي ريطة بنت عمرو بن كعب ، صحيح أن الاستشهاد لم يأتِ على سبيل المدح ، وإنما جاء على سبيل القدح ، وأنا لم أقل أن نقدّس المجانين ، أو نتخذهم قدوات فنحذوا حذوهم ، وإنما أن نتفهمهم فقط ، وحين يتوقف القرآن على جلالته عند ريطة ، فكأنه يخبرنا أنّ للمجانين متّسع في الحياة!

من الجنون ما يتسامق حتى يبدو كأنّه عبقريّة ، ومنه ما ينحدر حتى يبدو جنوناً خالصاً!

أجل عبقريّة . . .

يقول أرسطو : ما من عظمة إلا وفيها مسحة من الجنون!

ويقول نيتشيه : في الجنون شيئاً من الحكمة!

وعامر مجنون قريتنا كان يجمع النقيضين معاً!

أحياناً يبدو عبقرياً يبزُّ العقلاء ، وأحياناً يبدو مجنوناً إلى درجة مثيرة للشفقة!

كنتُ يوماً في جنازة صبيّ من القرية ، وكان والد الصبيّ يبكيه في الجنازة بكاءً مُرّاً ، وبرر النّاس بكاء الوالد بكثير من الشفقة والتّفهم . . .

وقالوا : معه حق في هذا الجزع كله ، فابنه صغير ولم يرَ من الدّنيا شيئاً!

فقال عامر قولاً ما زال يصيبني بالذّهول كلّما تذكّرته

قال : حتى لو كبر هذا الصبيّ كنّا سنشيعه أو يشيّعه غيرنا ، أما كونه لم يرَ من الدّنيا شيئاً فكأنّ في الدّنيا شيئاً يستحق التعزية أنّه لم يره!

كنّا نمشي في الجنازة ، يملأنا الأسى والحزن ، ولكننا كنا ناسين الموت في حضرة الموت!

نسينا أننا سنموتُ جميعاً ، وأننا اليوم نمشي حاملين وغداً سنمشي محمولين! وحده عامر من بيننا كان يتذكر حقيقة الحياة ، وأنّها ستنتهي عاجلاً أم آجلاً ، وحين كنا حزينين لمفارقته الدّنيا باكراً كان هو يعرف أن الدّنيا لا تستحق ألم الفراق!

أليستْ هذه عبقريّة يا نبض؟!

أن نفهم الحياة بتجرّد ودون أن نقاربها بمشاعرنا ، المشاعر أحياناً تُشوّه حكم العقل ، وتجعله يصدر أحكاماً خاطئة ، أو قرارات آنيّة بعيدة عن الحكمة ، وحين أدخلنا عواطفنا ضمر عقلنا ، أما عامر فنحّى عواطفه فبرز عقله! ولو سألوني اليوم عن أبلغ حكمة سمعتها في قريتنا لقلتُ دون تردد ، حكمة عامر المجنون!

بالمقابل كان عامر لا يرضى أن يكون عاقلاً طوال الوقت ، أعتقد أنّ هذا الأمر كان مرهقاً له ، وأنّه حين كان يمارس جنونه ، ويترك نفسه على سجيّتها كان يستريح من مغبّة أن يكون عاقلاً!

كان يسير مرّةً في الطريق ، وكنتُ أسير خلفه ، فقام أولاد حارتنا الشياطين برميه بالحجارة ، ثم اختبؤوا كأنهم فصّ ملح ذاب في الماء . . .

فالتفتَ وراءهِ فلم يجد سواي

فقال لي : أنتَ يا حيوان!

ضحكتُ لحظتذاك ملء قلبي ، وكأنّه كان يغازلني لا يشتمني ، واقتربتُ منه ، وقلتُ له : أتُصدّق أني أفعل هذا؟!

فقال : كلكم تفعلونه . . . كلكم مجانين!

أعودُ بكِ إلى المجنونات ، لم تكن ريطة الوحيدة ، كان لها سَميّة! تُدعى ريطة بنت عامر ، وكانتْ تُعلّم رأس أولادها

بالقَزْعِ لتعرف أولادها من أولاد غيرها!

حينما ننظرُ في هذا الأمر من منظورنا سيبدو فعلاً مجنوناً لا شكّ ، ولكن لماذا لا ننظرُ إلى هذا الأمر من زاوية أمومتها ، لماذا نضحك على أم تريد أن تعرف أولادها دون أن تحتاج إلى ذُلّ سؤال الآخرين عنهم؟!

برأيي هذا تصرّف غاية في النُبل والحنان ، تريد أن لا تخطىء أولادها ، أن تضمّهم وتهتم بهم رغم جنونها!

بالمقابل كلانا يعرف أنّ كثيراً من العقلاء يعرفون أولادهم جيّداً ، ولكن لا يُكلّفون أنفسهم عناء الاهتمام بهم ، لأنّ النّاس يخلطون بين مفهوم التّربية ومفهوم الرّعاية ، يعتقدُ كثر من الأهل أن التّربية هي تأمين الطعام ، والشّراب ، واللباس ، واصطحاب الطفل المريض إلى الطبيب ، بالمناسبة هذا ما يفعله الأثرياء مع حيواناتهم المدللة ، وهذا إعالة لا تربية ، التربية مفهوم أعمق ، وأكثر تعقيداً!

لهذا عندما جاء رجل إلى عمر بن الخطاب يشكو إليه عقوق ابنه

استدعى عمر الابن وأنّبه قائلاً : أما علمتَ أنّ لأبيكَ؟!

فقال له : يا أمير المؤمنين ، علمتُ أنّ لأبي عليّ حقوقاً ، ولكن أليس لي حقوقاً على أبي؟

قال عمر : بلى

فقال الابن : فما حقوقي على أبي؟!

فقـال عـمـر : أن يُسمّـيك اسمـاً حـسنـاً ، ويختـار لكَ أماً لا تُعيّر بها ، وأن يُؤدّبكَ ويُربّيك!

فقـال الابن : أما أبي فـقـد سمّـاني جُعـلاً ، والجُعل حـشـرة صغيرة في الصّحراء تجمع بُراز الحيوانات وتحملها إلى جحرها ، وقـد اخـتـار لإخـوتي أمّـهـات من الحـرائر واخـتـار أميّ أمـةً فـهم يُعيّرونـي بهـا ، ومُـذ فـتحـتُ عينـيّ علـى الدّنيا ، أرسلني إلى المراعي ، فـلا أحـفظُ قـرآناً ، ولا أفـقـه حـديثـاً ، ولا أعـرفُ شِعراً!

فقال عمر للأب : لقد عققته قبل أن يعقّكَ!

صحيحٌ أن عقوق الأهل ليس مبرراً لعقوق الأولاد ، وأنّه إن أخلّ الأهل بواجب التــربيــة ، فليس على الأولاد أن يُخلّوا بواجب البِرّ!

ولكننا نهاية المطاف لا نحصد إلا ما نزرع!

أجمل ما في المجانين يا نبض أنّهم أحرار . . .

أحرار على وجه الحقيقة لا على سبيل المجاز مثلنا!

حين يؤمنون تجـدينـهم يؤمنون على سـجـيّـتـهـم ، وحين لا يتعبّدون - وقد أُسقطتْ عنهم - لا يفجرون!

يقول نجيب محفوظ : الجنون وحده هو الذي يتّسع للإيمان والكفر ، للمجد والخِزي ، للصدق والكذب ، أمّا العقل فكيف يحتمل هذه الحياة الغريبة ، كيف يشتم ألق النجوم وهو مغروس حتى فمه في الطين!

في المجتمع قيودٌ تكبّلنا يا نبض ، ونحنُ عبيدها دون أن ندري ، ولكننا نمارس عبوديتنا دون أن نلتفت للقيود التي تغلّ أيدينا!

العادات والتّقاليد كثيرٌ منها قيود يا نبض . . .

القوانين قيد . . .

والأحلام قيد . . .

وتحصيل الرّزق قيد . . .

أما المجانين فمعفيّون من هذا كلّه ، لهذا هم أحرار تماما!

وفي هذا يقول بيكوس كازانتزاكيس : قد يحتاج الرجل إلى قليل من الجنون حتّى يتسنى له قطع ذلك الحبل ليصبح حُرّاً!

وأعودُ بكِ إلى الجنون الذي يبدو عبقريّاً أحياناً . . .

وفيه يقول جبران : بين العبقرية والجنون خيط أرفع من نسج العنكبوت!

حضرَ مجنون إلى مجلس إمام المسجد وكان عنده ضيوف ، فأحضر الإمام تمراً ، وطلب من المجنون أن يقسمه بين الحضور

فقال المجنون لإمام المسجد : أأقسمه كقسمة النّاس أم كقسمة الله؟!

فقال له الإمام : اقسمه كقسمة النّاس!

فأخذ المجنون طبق التّمر ، وأعطى كل واحدٍ من الحضور ثلاث تمرات ، ووضع بقيّة الطّبق أمام الإمام

عندها قال له الإمام : اقسمه كقسمة الله!

فجمع المجنون التمر ، وأعطى الأوّل تمرة ، والثّاني حفنة ، والثالث لا شيء ، والرّابع ملأ حجره!

فضحك الحاضرون طويلاً . . .

أتعرفين ماذا أراد المجنون أن يقول للنّاس؟!

أراد أن يقول لهم أن لله حكمة في كلّ شي ، وأنّ أجمل ما في الحياة التفاوت ، ولو أُعطي الناس كلهم المال لم يعد له قيمة . . .

ولو أُعطي كلّهم الصّحة ما كان للصحة قيمة . . .

ولو أُعطي كلهم العلم ما كان للعلم قيمة . . .

سرّ الحياة أن يكمل النّاس بعضهم ، وأن لله حكمة لا ندركها بعقلنا القاصر ، فحين يعطي الله المال له حكمة ، وحين يمسكه له حكمة ، وأنّه ليس علينا أن نشتكي الله كما نشتكي موزّع التمر إذا حرمنا! لأن الله سبحانه إذا أعطانا فقد أعطانا ما هو له ، وإذا حرمنا فقد حرمنا مما ليس لنا أساساً!

ولو نظرنا إلى الحياة لوجدناها غير متساوية ، لهذا نعتقد أنّ فيها إجحافا ، ولكن هناك مبدأ أسمى من المساواة ، وهو العدل ، والله عادل ، لهذا وزّع بالعدل لا بالمساواة ، لأن المساواة تحمل في طيّاتها إجحافا أحياناً ، ومن أُعطيَ المال فنحنُ لا نعرف ما الذي أُخذ منه في المقابل ، وإنّي على يقين أنّ الله لو كشف لنا حجب الغيب ما اخترنا لأنفسنا إلا ما اختاره سبحانه لنا ، ولكننا ننظرُ إلى الدّنيا كأنّها كلّ شيء ، وأنّها المحطّة الأخيرة لنيل النصيب والرّزق ، هناك آخرة يا نبض ، ستأتي لا محالة ، وسنرى كيف تتحقق العدالة المطلقة ، وأنّ العطاء الحقيقي هناك ، والحرمان الحقيقي هناك!

المالُ لم يكن يوماً معياراً لحب الله للعبد ، فقد أعطى المال والملك لمن أحبّهم ولمن أبغضهم ، ولكنّه لم يُعطِ الهداية إلا لمن أحبّ ، ولو كان المال دليلاً على محبّة الله للناس لما ملك النمرود ونبوخذ نصّر الأرض من مشرقها إلى مغربها ، ولما مضت الأشهر ولا يوقد في بيت النبيّ نار لطعام!

مشكلتنا حين تمر بنا قصص المجانين لا نأخذ منها إلا الجانب المضحك ، في حين لو تأملناها جيّداً لبدا لنا في طيّاتها حكماً كثيرة . . .

موزّع التّمر هذا مُدهش يا نبض!

المجانينُ عباقرة أحياناً ، ويأتون بحلولٍ مذهلة ، نسيتُ اسم الأمير الذي كان محاصراً وأراد أن يُرسل رسالة إلى الخليفة يخبره بأمر الحصار ، فجمع وزراءه ومستشاريه علّهم يعثرون على طريقة يخبرون بها الخليفة ليرسل لهم المدد ، وبينما هم في حيرة من أمرهم ، إذ دخل عليهم مجنون المدينة ، وألقى السلام على الأمير والحضور . . .

وقال : علمتُ أنّ الأمير قد جمع عقلاء القوم ، يسترشد بآرائهم ، وإنّي لمّا علمتُ أنّ الأمير في غنى عن رأيي ، ما منعني ذلك أن أستغني عن نصيحته ، والتّضحية بنفسي في سبيله!

فقال الأمير له : ليسَ هذا وقتك!

فقال له المجنون : اسمع مني ، فإنّ الله يضع سرّه في أضعف خلقه

فقال له الأمير : قُل

فقال المجنون : قد علمتَ أنّي مجنون ولا يشكُّ أحدٌ في ذلك ، وأنّ العيون التي زرعها الأعداء بيننا يعرفون هذا ، فأرى أن أحلق رأسي ، ثم تنقش عليه رسالتك إلى الخليفة ، ثم أمكث أياماً لا أصيب الماء ، فإذا نبتَ شعري وحجب الرّسالة ، مضيتُ إلى الخليفة ، وهم لا يشكّون في جنوني ، فيخلّون بيني وبين الطريق!

فاستحسن الأميرُ الفكرة ، ونفّذها على الفور ، وما مضى شهر إلا وجيش الخليفة يفكُّ عنهم الحصار

وقريبٌ من هذا حدث بين الأمير بشير و«أخوتُ شانيه»

كان الأخوتُ مجنوناً خالصاً ، وكان يدخلُ على الأميرة شمس ، زوجة الأمير بشير الشّهابيّ ، تتسلى بأخباره ، وتُرفّه عن نفسها ، ثم لما بنى الأمير بشير القصر ، اكتشف أن المهندسين لم يحسبوا حساب جر الماء إلى القصر ، وكان النهر بعيداً في أعلى البلدة ، والمنطقة جبليّة وعرة ، فجمع بشيرُ المهندسين والخبراء ليجد حلّاً لهذا المأزق ، فقصرٌ دون ماء لا يُسكن ، وبينما هم في غمرة اجتماعهم إذ علم الأخوتُ بأمرهم ، فدخل على الأمير وحيّاه . . .

وقال له : قد ساءني أنّ الأمير دعا المهندسين ولم يدعُني ، ظنّاً منه أنّي عاجز عن جرّ الماء إلى القصر ، الأمر بسيط أيها الأمير ، اجمع النّاس كلهم ، وكل إنسان يحفر مترا . في الأرض ، وكل امرأة يحفر عنها زوجها ، وكل ولد يحفر عنه أبوه ، متر وراء متر فإذا أنت عند النّهر!

أُعجب المهندسون بالفكرة ، والطّريف أنّ العمل بالسّخرة انتهجته الدّول المتعاقبة على البلاد ، فحين يتوزّع العمل يُنجز بأقصر وقت وأقل كلفة!

أتعرفين يا نبض . . .

إحدى الأشياء التي تُحيّرني في المجانين أنّهم لا يعيشون طويلاً ، القليل منهم يشيخ ، كلّ المجانين الذين عرفتهم ماتوا باكراً ، وكنتُ دوماً أريد أن أفهم العلاقة بين الجنون والموت المبكر ، ويوم موت عامر عرفتُ السبب ، كنتُ أجلسُ عند جدّتي تقُصُّ عليّ قصصها كالعادة ، حتّى جاء من يخبرنا أنّ عامراً مات!

فقالت جدّتي بلهجتها العاميّة : سبحان الله ، الطّيب ما يقعد!

كانتْ تعني أن الطيبين يرحلون باكراً

وقد كان عامر ككل المجانين طيّباً إلى الحدّ الذي لم يجعله يبقى!

أتخيّلُ لو أنّكِ جالسة أمامي الآن لنسيتِ موت عامر ، ولكان حدثاً عابراً ، ولسألِتني على الفور : ما القصّة التي كانتْ ترويها جدّتك؟!

تحبّين قصصها كثيراً مثلي

وكالعادة كنتُ سأستمتعُ بتعذيبكِ ، وأقول لكِ : لا عليكِ ، قصّة عاديّة ، أخبركِ بها لاحقاً

فيملأكِ الفضول وتقولين لي : لا ، الآن أريدها

لم أخبركِ من قبل أنّ هذه كانتْ إحدى حيلي لأجعلكِ تجلسين معي أكثر!

بما أنّكِ جلستِ الآن معي ولو على ورقة بيضاء أكتبُ عليها ، فإنّ فضولكِ لا يهون عليّ

حسناً ، كانتْ تُخبرني قصّة عن كيد النّساء

قالت لي :

يُحكى أنّ تَاجِرَ قُماشٍ من عكا علّق على الجدارِ خَلفَ مكتبِهِ لَوْحةً كَتبَ فِيها

كَيدُ الرِّجالِ غَلبَ كيدَ النّساءِ . . .

وحدثَ أنَّ امرأةً دَخلتْ عَليهِ ذاتَ يوم لتشتَريَ بَعضَ حَاجَاتِها ولَمَّا قَرأتْ مَا علَّقَه التَّاجِرُ أبدَتْ امتِعَاضاً شَدِيداً وقَالتْ لَه : إن كَيْدَ النِّساءِ غَلبَ كَيدَ الرِّجال .

وتشَارعا ما شاءَ الله لهُما أن يتشَارعَا دونَما فائدة ثمَّ إن المرأةَ مَضَت في سَبيلِها وعادَ التَّاجرُ إلى تِجَارته . . .

وَطَوالَ الطَّريقِ إلى بيتِها ظَلّت المرأةُ تفكِّرُ بِطريقَةٍ تكسِر فِيها رأْسَ هذا التَّاجِرِ العنيد . . .

صَبيحَة اليومَ التَّالي تَنكَّرت بثيابِ امرأةٍ على مَشَارِفِ السِّتين وحَمَلت عُكَّازاً ووضَعت نظارةً سَميكَةَ العَدَسَاتِ حتى بَدَتْ من دُنيا العَجَائِز حقاً . . .

دخَلتْ على التَّاجِرِ فلمْ يَعرِفها وقَالتْ له بصَوتٍ باهِتٍ أيُّها التَّاجرُ إن الله ابتلانِي بولدٍ نغَّصَ عَليَّ حَياتِي فلا يسمَعُ لي نُصحاً ولا يُعيرُ لي سَمعاً وانَّه قد عَشقَ امرأةً مُتزوجةً وأنا حَاولتُ أن أُثنيَهُ عن ذلِكَ دونَ جَدوى . . .

تدارَكَتِ المرأةُ أنَّها أفرَطتْ في الشَّرحِ وقَالتْ بِسرعةٍ : إن ابنيَ قدْ وَعَدَ مَحبوُبَته تلكَ بقطعَةِ قُماشٍ لا مَثيلَ لها في عَكا

قالَ لَها التَّاجِرُ بِسرعَةٍ لقد وصَلني منذُ يومينِ ثوبُ قُماشٍ من اسطَنبولَ ليسَ لهُ في بلادِ الشَّامِ كلَّها مثيلٌ . . .

قَالت له المرأةُ هل ليَ بقصَاصَةٍ صَغيرةٍ منه حتى أعرضَها على ابني ليعرضَها على محبوبتَه فوافقَ التَّاجرُ وقامَ بقصٍّ قطعةَ قماشٍ بحجمِ الكفِّ وناولَها للمرأةِ ومضَت في سبيلِها . . .

خَرجتِ المرأةُ من دكَانِهِ وسألت عن بيتِه فدلُّوها عليهِ فذهَبت وطرقَتِ البابَ ففتَحت زوجَةُ التَّاجِرِ فقَالتِ المرأةُ : يَا بُنيتي أنا امرأةٌ من مدينةٍ أُخرى وقد أدركَني وقتُ الصَّلاةِ فهلا أَذنْت لِيَ بأن أُصَليَ في بيتِكِ

رحَّبَتْ زوجة التَّاجِرِ بالمرأةِ أَيُما ترحيبٍ وجهَّزتْ لَها الوضُوءَ ومكانَ الصَّلاةِ وتركَتها لصَلاتِها ومضَتْ لبعضِ شُؤونِ بيتِها . . .

أَخرجَتِ المرأَةَ قِطعَة القُماشِ ووضَعتها على السَّريرِ ومضَت في حالِ سَبيلها . . .

ثُمّ إنَّ التَّاجِرَ عادَ إلى بيتِه بعد الظُّهرَ ليرتاحَ قليلاً فوجَدَ قِطعةَ القُماشِ فلمْ يُراودُه أدنى شَك بأنَّ زوجتَه هيَ محبُوبَة ابنِ تلكَ المرأةِ

بِسُرعَةٍ نَادى على زَوجَتِهِ فحضَرت وقالَ لهَا اجمَعي أَّغراضَكِ وإلى بيتِ أهلكِ فاستحلفته باللهِ وبكلِ نبي مُرسلٍ إلا قالَ لها ما السبَبُ فأبى وقالَ إذا عُدتِ إلى البيتِ قبلً أن أُرسِلَ في طَلبكَ قطَعتُ رأسَكِ وإذا حاولوا إعادتَكَ إلي إيّاكِ أن تعودي . . .

اغتَمَّ التَّاجرُ أياماً طويلةً وتدهورت تِجارتُه . . .

مرَّتِ المرأةُ بدكانِه فرقَّت لحَالِه وقالتْ حانَ وقتَ إصلاح الأمور . . . عادت إلى بيتِها ولبست ثيابَ العجوزِ ونظَّارتها وجاءَت إلى دكَّانه فلمَّا رآها قامَ من على كرسيِّه كالمجنونِ يريدُ أن يضربَها فحالَ بينهما زبون . . .

فقالت لهُ : ما بِكَ؟ . . . قالَ : لعنةُ اللهِ عليكِ وعلى ابنكِ . . . قالت له : كلٌ هذا لأجلِ قطعةِ قماشٍ أخذتُها منكَ فماذا ستفعلَ الآنَ وقد جئتُ إليك اطلبُ قطعةً أخرى لأنِّي لما أخذت الأولى منكَ أَدركني وقتُ الصَّلاةِ فطرقتُ باباً ففتحت امرأة غايةٌ الأَخلاقِ والجمالِ فأحسنت إلي واعدَّت وضوئي ومكانَ صَلاتي ولكني نسيتُ قطعة القُماشِ عندها وتُهتُ عن البيتِ وأٌريدُ منكَ قطعةً أُخرى

انفرجت أسَاريرُ الرَّجلِ وقال : أَحقاً ما تقولينَ؟!

قالت له : ما كانَ إلا ما أخبرتك به . قال : إليك الثوبُ كله بلا مالٍ وخرجَ مُسرعاً ليعيدَ زوجتَه . . .

صَبيحةَ اليومِ التالي دخَلَ على التَّاجِر غلامٌ أعطَاه ورقةً وانصَرف ولَّما فتحَهاُ وجَد فيها جُملةَ تقول : ليسَ لي ولدٌ ولا هناكَ حبيبة ولكنَّ كيدَ النَّساءِ غلبَ كيدَ الرِّجال

من سَاعتهِ نزعَ التَّاجر اللوحةَ القديمةَ وهو إلى اليومَ يعلِّق على الجدارِ خلف مكتبهِ لوحةً تقول : كيدُ النِّساءِ غلبَ كيدَ الِّرجال

أنا الآن على قناعة تامة أنّ العجائز يرينَ الكيد في النّساء الصّغيرات أكثر مما يراه الرّجال ، ولستُ أدري ما السبب ، هل لأنّهنّ يعرفنَ النّساء جيّداً ، فلا يعرفُ النّساء إلا النّساء ، وقد قالت أغاثا غريستي : الحمد لله أني امرأة كي لا أضطر للزواج من امرأة أخرى والعيش معها تحت سقف واحد!

أم أنّه صراع أجيال ، دوماً الجيل القديم يرى الجيل الجديد ليس أهلاً للمسؤولية ، هذا ما يعتقده جدّي عن الشباب أيضاً ، رغم أننا حاربنا ، وها نحن ندفع ثمن الحقبة التي كانوا فيها شباباً ولم يكونوا بحجم المسؤولية ، إننا ندفع فاتورة صمتهم وسكوتهم ، نعموا هم بصمتهم ، ونحن الآن ندفع ثمنه ، على

يقيني أنّ لكل جيل ميّزاته، وعيوبه أيضاً، ولكنهم يحاكموننا بمعايير زمنهم ومجتمعهم، ونحن نراهم «دقة قديمة» لأننا نحاكمهم بمعايير زمننا ومجتمعنا، لو أدرك كلانا أنّ الفارق في ظروف الحياة سينتج فارقاً في السلوك لاسترحنا، ولكننا غفلنا عن قول عليّ بن أبي طالب ينصح الآباء: لا تُربّوا أولادكم كما ربّاكم آباءكم فقد وُلدوا لزمان غير زمانكم!

ما أفقهه هذا العليّ وما أحكمه، سبق علم الاجتماع وعلم النّفس، بأكثر من ألف سنة في هذا، وبجملة واحدة يختصر أسباب ظواهر اجتماعيّة كثيرة نراها الآن

قد تكون العجائز كجدّتي وجدّتكِ يرينَ نساء جيلكن مكيودات لأنّهن بلا وعيهنّ يغرنَ منكنّ! ليس سهلاً على المرأة أن ترى أنّها نضبتْ وذبلتْ وذاب جمالها، وأنتُنّ تُذكّرنهنّ بذبولهنّ هذا، قد يكون هذا مجرّد احتمال، وقد تكنّ مكيودات فعلاً!

لا تغضبي!

تعرفين أنّ هذا ليس رأيي في النّساء، وإن كان هذا رأي أغلب الرّجال، أنا لي رأياً مختلفاً في الأمر، وإن كان لا سبيل لإنكار الكيد في النّساء فهو ثابت في نصّ الآية، ولكنّي لا أنفيه في الرّجال، بل إنّ الكيد في الرّجال أشدّ منه في النّساء! ولكن

الرّجال استطاعوا بمثابرتهم على هذا الرأي إقناعكن به ، فالماءُ يفتتُ الصّخر ، ليس بالقوّة وإنّما بالإصرار ، وإصرارهم أقنعكنّ!

قال رجلٌ لنسوةٍ : إنكنّ صاحباتُ يوسف!

فقلنَ له : فمنْ ألقاه في الجُبِّ؟!

فقال : ومن ألقاه في السِّجن؟!

كلّما مررتُ بسورة يوسف تساءلتُ : أيُّ الكَيْدينِ كان أشد وطأة على يوسف ، كيد الرّجال أم كيد النّساء؟!

ألقَت النسوةُ يوسف في السّجن من فرط الحب ، وألقاه الرّجال في الجُبِّ من فرط الحقد!

الكيد إذاً ليسَ حِرفة نسائيّة كما يظنُّ الرّجال ، والحديثُ عن الكيد على أنّه شأنٌ أنثويّ تهمة ألصقها الرِّجال بالنساء ، نتيجة فهم ذكوريّ للنَّص القرآني «إنّ كيدكنّ عظيم»!

الآية وإن كانتْ تُثبت وبشكل قاطع وجود الكيد في النّساء ، فإنّ «ولا تقصُصْ رؤياكَ على إخوتك فيكيدوا لكَ كيداً» تُثبتُ بما لا يدع مجالاً للشكِّ أن للرجال حظاً وافراً من الكيد أيضاً!

وإذا كان كيدُ النّساءِ ممهوراً بالصِّفة «عظيم» ، فإنَّ كيد الرّجال ممهورٌ بالمفعول المطلق «كيداً» ، ومن فوائد المفعول المطلق كما يقول النُّحاة هو نفيُ المجاز!

خلقَ الله المرأة أرقّ من الرّجل في المشاعر ، وأضعف منه في البِنية الجسديّة ، ووضع الكيد فيها سلاحاً تُداري فيه رقّتها ، وتعوِّضُ به فارق القوة بينها وبين الرّجل ، وكل من يحمل سلاحاً ليس بالضرورة أن يستخدمه ، فالرجل الذي يحمل مسدساً لن يطلق النار على كل من يلقاه!

الكيدُ ليس اختياراً أُنثوياً تُذمُّ عليه النساء ، ليس مستحضر تجميل يضعنه بملء رغبتهنّ ، هو فطرة الله التي فطر عليها الناس ، والله لا يُذمُّ بشيء من خلقه ، لأنه سبحانه لا يخلق إلا لحكمة ، ويبقى خلقه حكمة ولو عجزنا عن إدراكها!

الكيدُ مرتبط بحسن التدبير بشكل عام ، وليس مرتبطاً بالشر بشكل خاص ، فالقادرة على الكيد عليكَ ، قادرة على الكيد لك! هي سيفٌ بيدكَ أنتَ تختار إما أن تحارب به أو تغرسه في صدركَ! خديجة امرأة فلمَ لمْ نسمع عن كيدها ، أليسَ لأنها وجدتْ رجلاً حوّل طاقة التدبير فيها له لا عليه!

الحيّة ملمسها ناعم ، ولكن جرّب أن تؤذيها ، ستُظهر لكَ سُماً سيُنسيكَ نعومتها ، والنساء كذلك! والأمثال بعموم اللفظ لا بخصوص السبب!

عندما تشعر المرأة أنها أثاث في البيت ، عندما تُهان بدل أن تُكرم ، وتُضربُ بدل أن تُحضن ، ستكيد وهي معذورة إذ

تفعل! نحن نستخرج أجمل ما في النّساء ، ونحن نُطلق أسوأ من فيهنّ!

ولستُ أدري لِمَ يُجرجرني الحديثُ عن الكيد إلى الحديث عن المطلقات! أسوأ ما في المجتمع أنّه لا يرحم ، يتعاطف عن آخره مع الزّوجة التّعيسة ، لأنّه يعرف أنّها مظلومة ، ولكن إذا ما طلبت الطلاق انقلبَ هذا التعاطف مئة وثمانين درجة وصار إدانة ، كأنّه على المرأة أن تبقى تعيسة في ظلّ ظلم زوجها ، أو مطلّقة في ظلّ ظلم النّاس ، هكذا هم النّاس متطرفون في أحكامهم دوماً ، ومنحازون ، فإذا ظُلم الرّجل في زواجه ، وابتُليَ بزوجة جعلتْ ليله نهاراً ، ونهاره ليلاً ، من حقّه أن يُطلّق ، هذا التّعيس المسكين نتعاطف معه حتى آخر رمق فينا على التّعاطف ، أما إذا قلبنا الأدوار فما نراه حقاً مُقدّساً للرّجل يصبح حراماً على المرأة ، دوماً ما نقول لها : إنّ أبغض الحلال إلى الله الطلاق!

وهذا صحيح ، الطلاق أبغض الحلال إلى الله ، ولكنّه ليس أبغض الحرام ، يبقى حلالاً مع بغض الله له

وعندما وضع الدّين قيوداً في وجهه ، ونهى عن طلبه من غير بأس ولا ضرر ، لأنّه يعرف تبعاته على الأسرة والمجتمع ، وأنّه يُنتج مشاكل لا حدّ لها ، ولكن هذا المُنتجُ للمشاكل حلّ في كثير من الأحيان!

تعرفين جارتنا دعاء ، كانتْ تعيشُ جحيماً لا زواجاً ، وكلّنا نعرف أنّ زوجها سكّير ، يُنفق راتبه على مشروبه وملذّاته ، ويتركها تتدبر قوتها وقوت أولادها بما يجريه عليها أهلها والجيران ، وأكثر من مرّة عاد إلى البيت سكراناً ، وطردها من بيتها في منتصف الليل ، ولا زلتُ أذكر مرّة عندما سمعنا صراخاً في الطريق ، فخرجنا نستطلع الأمر ، فإذا الدم يسيل من أنفها ، وآثار الضّرب على وجهها ، وهو يدفعها خارج البيت!

كلّ الذين قالوا أنّ دعاء مظلومة ، وأنّ زوجها وحشٌ لا يُساكن ، هم أنفسهم الذين قالوا أن دعاء مكيودة لأنّها طلبت الطلاق!

لا أعرفُ ماذا يُريدون منها

أن تبقى تُضربُ إلى ما لا نهاية

أو تموت من الضرب ذات سكرة شديدة

حتّى الذين كانوا أكثر تحضّراً قالوا كان يجب عليها أن تصبر لأجل أولادها!

أريدُ أن أعرف من الذي أقنع النّاس أنّ عيش الأولاد في جوّ موبوء بالمشاكل والعنف وقلة الاحترام ، أفضل من عيشهم مع أحد الأبوين في جوّ من الهدوء والطمأنينة!

صحيح أنّ الأب لا يغني عن الأم ، وأنّ الأم لا تغني عن الأب ، هذا في الحالات الطبيعيّة السّويّة ، أما حين يصبح

الزّواج شاذاً عن الطبيعة فالحكمة تقتضي إخراج الأولاد منه ، لأنّ كل ما يقوم به الأبوان هو تربية يتلقاها الأولاد!

الزّوج الذي يضربُ زوجته ، سيعتقد ابنه أن هذا هو الطريق الأمثل لتطويع النّساء ، وستعتقد بنته أنّ الأزواج وحوش ، لأنّه قدوة!

والزّوجة التي تُعامل زوجها بقلّة احترام سيعتقد ابنها أنّ النساء قليلات أدب ماكرات ، وستعتقد ابنتها أن هذه هي الطريقة الأمثل لمعاملة الرّجال ، لأنّها قدوة أيضاً!

هناك عظماء كُثر كانت أمهاتهم أرامل منذ صغرهم ، ولم يمنعهم هذا من أن يكونوا عظماء ، وهناك عظماء ربّاهم آباؤهم أيضاً ، السّر لا يكمن في وجود الأبوين وإنّما في طريقة تعاملهما!

لا أعرفُ لماذا يريدون أن يقنعوني أن دعاء إذا أخذتْ أولادها وربّتهم وحدها في بيئة صحيّة نفسياً وأخلاقياً بعيداً عن بيئة بيتها الموتور كأنها ترتكبُ جريمة ، لا كأنها تقوم بعمل عظيم وجبّار ، ثمّ لماذا إذا قامت الأرملة بتربية أولادها وحدها كان هذا عملاً عظيماً يستحقُّ الإشادة ، وإذا فعلته المطلقة تختلف المعايير!

يا نبض :

المرأة قادرة أن تربّي ، سواءً مطلقة ، أو أرملة ، أو إذا كان حضور زوجها صفراً ، وجود الزّوج ليس شرطاً لممارسة الأمومة .

الخنساءُ هي إحدى أعظم الأمهات في تاريخنا العربيّ ، قدّمتْ في القادسيّة أولادها الأربعة شهداء ، كانتْ في الجاهلية إحدى أشهر النّساء ، تأتي سوق عكاظ ، وتقرضُ شعراً يأخذُ الألباب ، على قدرٍ من الصلابة والمتانة ، ولم يكن غريباً أن الرّجال حين ألقوا قصائدهم على النّابغة الذبيانيّ حكم سوق عكاظ ، وألقتْ عليه الخنساء شعرها ، قضى قضاءه الشّهير قائلاً : الخنساءُ أشعر العرب!

يومها ثارتْ حفيظة حسّان بن ثابت ، وقال له : أنا أشعر منها ومنك!

فقال له النابغة : بأيّ شِعركَ؟

فأنشد حسّان :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دماً
ولدنا العنقاء وابني مُحرقٍ
فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : والله إنّك لشاعر!

ثم أردف قائلاً ، في واحدةٍ من أولى خطوات تأسيس النّقد العربي :

لو قلتَ الجفان بدل الجفنات لكان أبلغ ، لأن الجفنات جمع تأنيث ، وجمع التأنيث يفيد القلّة ، والكرم لا يكفي معه القليل!

ولو قلتَ يلمعنَ بالدجى لكان أبلغ من قولكَ يلمعن بالضحى ، لأنّ حاجة الضّيف إلى القِرى في الليل أشدّ منها في الصباح!

ولو قلتَ أسيافنا يجرين من نجدة دماً ، لكان أبلغ من قولكَ يقطرنَ من نجدة دماً ، فالنجدة بالسيوف لا تستقيم إلا بجري الدم لا بقطره!

وأرى يا حسّان أنّكَ افتخرتَ بمن ولدتَ ولم تفتخر بمن ولدوك ، وهذا معنى تستقبحه العرب!

فقام حسّان من أمامه مهزوماً!

وكان من الطبيعيّ أن يتهافت الرّجال لخطبة الخنساء ، فخطبها سيّد آل بدر فرفضته ، وخطبها سيّد بني جشم فرفضته ، وتزوّجت ابن عمها عبد العزى على عادة العربيّات وقتذاك ، وقالت قولتها المشهورة : أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرّماح!

وكان عبد العزّى مقامراً ، وكانت الخنساءُ ذات مالٍ كثير ورثته من أبيها ، وكانتْ عادة العرب أن لا ترث فيهم النساء ، ولكنّ أخاها صخراً الشّهم ، لما وصلت التركة بين يديه ، أبى أن يستأثر فيه دون أخته ، وإنما أعطاها نصف المال!

وما لبث عبد العزى أن قامر به وخسره كلّه!

ثم ذهبت إلى أخيها صخراً تشكو إليه قلة ذات يدها ، فجمع ماله كله وأعطاها نصفه مجدداً ، ولكنّ عبد العزّى ما لبثَ أن قامر به وخسره كله!

ثم عادت الخنساءُ إلى صخرٍ مرة ثانية تستعين به على ما نزل بها ، فجمع ماله كلّه وأعطاها نصفه ، وكالعادة ما لبث عبد العزى أن قامر به حتى خسره!

وهذا هو سبب عشق الخنساء لصخر ، لم يكن مجرّد أخ ، كان قبيلتها كلها ، وهي لا تُلام إذ أفنتْ عمرها تبكيه بعد مقتله ، فرثته رثاءً جاب أرجاء الصّحراء ، فحفظته العرب صغيرها وكبيرها ، حتى يوم جاءت مُسلمة

قال لها النبيّ : هيه يا خُنيس ، أنشديني من حديث صخر!

فأنشدته . . .

قد تقولين لي : إذاً صبرت الخنساء على زوجها ، فلِمَ لمْ تصبر دعاء؟!

فأقول لكِ : هذا قياس مع الفارق ، لأنّ الوضع في الحالتين مختلف تماماً ، فمقامرة عبد العزى لم تنسحب إهانةً للخنساء أمام الأولاد ، فلم يكن يضربها ، ولم يكن يهينها ، وقد كانتْ ترى أنّ ذهاب مالها هيّن في سبيل الحفاظ على بيتها ، أما دعاء فأرادت أن تحافظ على كرامتها ، وعلى أولادها ، فهي غير مُلامة!

الشّاهد في الأمر أنّ الخنساء استطاعت أن تربي أولاداً عظماء حين كان الأب غائباً تماماً عن المشهد ، ولكن دعاء ما كانت تستطيع أن تربي أولادها لأنّ زوجها كان حاضراً بقوة ، ولكنّه حضور فظ ، وقف حجر عثرة في وجه كرامتها ، وتربية أولادها!

حتى أننا حين نقرأ قصة موسى في القرآن ، وهو أكثر الأنبياء ذِكراً فيه ، نلحظُ غياباً تاماً لدور الأب ، فلم يُذكر في معرض المدح ، ولا في معرض الذّم ، بطلة القصة بلا منازع هي أمه يوكابد!

بطلة حين ألقته في اليمّ امتثالاً

وبطلةً حين رضيتْ أن يكون دورها ثانوياً في حياة ابنها فيما بعد ، فقد كانتْ مجرّد مُرضعة

ولكنّ التي لعبت دور الأم في حياة موسى كانتْ امرأة لا

تقلُّ عظمةً عن يوكابد ، كانتْ آسيا بنت مزاحم ، فربّته أحسن تربية في بيت أسوأ الرّجال ، فكان موسى العظيم صنيعة امرأتين!

أحسبُ أنّ هذا يكفي لإيصال فكرة أنّ المرأة تستطيع أن تقوم بواجب التّربية وحدها حين يكون حضور الأب صفراً!

وهناك عظماء كثر صنعتهنّ النّساء ، أحمد بن حنبل الذي حفظ الله به دينه ، حتى صارتْ الأمة تقول : حفظ الله الإسلام برجلين ، أبو بكر يوم الرّدة ، وأحمد يوم الفتنة!

كان ابن حنبل يتيماً منذ نعومة أظفاره ، فتعهدته أمّه ، تأخذه ابن سبع سنين إلى صلاة الفجر ، وتنتظره بباب المسجد حتى يفرغ من صلاته ، فإذا فرغ منه أخذت بيده إلى البيت ، وإذا ما طلع النّهار أخذته إلى حلقات القرآن والحديث ، فصار إمام السُّنة ، وأحبّه الطائعون والعصاة على حدّ السّواء ، وله مع أبي الهيثم قصة عجيبة في الليلة التي جُلد فيها في فتنة خلق القرآن!

يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل : كثيرا ما كنتُ أسمع أبي يقول : اللهم اغفر لأبي الهيثم اللهم ارحم أبا الهيثم

فقلتُ له : ومن أبو الهيثم يا أبتِ ؟

فقال : رجلٌ من الأعراب لمَ أرَ وجهه!

ففي الليلة التي سبقت جَلدي وضعوني في زنزانة مظلمة فوكزني رجل وقال : أأنتَ أحمد بن حنبل؟

قلتُ : أجل

قال : أتعرفني؟

قلت : لا

فقال : أنا أبو الهيثم اللص ، شارب الخمر ، قاطع الطريق ، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني جُلدت ثماني عشر ألف جلدة متفرقة ، وقد احتملتُ كل هذا في سبيل الشيطان ، فاصبر أنتَ في سبيل الله يا أحمد!

ولما أوثقوني وبدأ الجلد كنتُ كلما نزل السوط على ظهري تذكرتُ كلام أبي الهيثم وقلتُ في نفسي : اصبر في سبيل الله يا أحمد!

الشّافعيّ أيضاً كان صنيعة أمّه يا نبض

هو الآخر فتح عينيه على الدّنيا يتيماً ، فتعهدته أمه بالرعاية ، وأغدقتْ عليه حنانها ، وكانت تأزّه على حلق الحديث والقرآن أزاً ، وجاء إليها يوماً شاكياً أنّه لا يجد ورقاً يكتب عليه

فقالت له : ذلك عندي

فكانتْ تذهبُ إلى حيثُ ديوان كاتب الخليفة ، وتستصلح

له مما يلقونه في القمامة ورقاً للكتابة!

ابن حجر العسقلانيّ ، الذي شرح صحيح البخاريّ كله في غاية الإتقان ، لم يُربّه أبوه ، ولم تُربّه أمه ، لقد ربته أخته الكبرى لأنه كان صغيراً عندما ماتا ،

ويقول عنها ابن حجر : كانت قارئة كاتبة ، أعجوبة في الذّكاء ، وهي أُمي بعد أمي!

عيسى ابن مريم يا نبض وُلد دون أب ، فربّته مريم ، الذي ربّاها زكريا من قبل!

التربية إرادة قبل أن تكون رجلاً أو امرأة ، بإمكان امرأة أن تقوم بها وحدها ، وبإمكان رجل أن يقوم بها وحده ، إذا أرادوا ذلك!

والنّاسُ في هذا سواء ، شرقهم وغربهم

جورج واشنطن ، أوّل رئيس للجمهوريّة في أمريكا ، ربّته أمه لأنه كان يتيماً ، وهو حتى اليوم أعظم رؤساء القوم!

المهاتما غاندي أيضاً ربّته أمه لأنّه كان يتيماً

وكانتْ تقول له كلّ صباح ، قل معي :

أنا حرّ ، أنا شُجاع ، سأقول الحقيقة دائماً!

فخرج من تحت يديها العظيم الذي تعرفينه!

توماس أديسون . . .

الذي أضاء لنا كوكب الأرض يا نبض ، هو صنيعة أم آمنت به!

قام مدرّسه بطرده من المدرسة لأنّ تصرفاته كانت غريبة جداً

وقال له : أنت غبي ، ولست مؤهلاً للاستمرار في المدرسة بعد الآن

ثم أرسلت المدرسة رسالة إلى أمه بهذا الخصوص

تألّمت ماري عند سماع الخبر . . .

وقالت للأستاذ : كل المشكلة أنّ ابني أذكى منك ، وسترى من يكون توماس في المستقبل!

عادت الأم بتوماس إلى البيت ، وبدأتْ بتثقيفه ، وتشجيعه ، فساعدته على مطالعة تاريخ اليونان والرّومان ، وقاموس العلم ، وفي سن الحادية عشرة من عمره درس نظريات نيوتن ، وقرأ قصة حياة جاليلو جاليلي ، وروايات شكسبير كلّها!

وعنها يقول توماس أديسون في مذكّراته :

لقد اكتشفتُ مبكراً في حياتي أن الأم أطيب كائن على الإطلاق ، لقد دافعتْ عني بقوة عندما وصفني أستاذي بالغبي ، وفي تلك اللحظة عزمتُ أن أكون جديراً بثقتها ، كانتْ شديدة الإخلاص ، واثقة بي كلّ الثقة ، ولولا إيمانها بي

لما أصبحتُ مخترعاً أبداً . إنّ أمي هي التي صنعتني ، لأنّها كانتْ تحترمني وتثق بي ، وأشعرتني أنّي أهم شخص في الوجود ، فأصبح وجودي ضرورياً من أجلها ، وعاهدتُ نفسي أن لا أخذلها كما لم تخذلني قط!

تقولُ العربُ يا نبض : إن لم يكن وِفاقٌ ففِراق!

ودعاء لم تفعل أكثر من أنّها نفّذتْ ما خلصت إليه العرب في تجاربها ، لم يكن من وفاق أبداً ، فأرادته فراقاً ، لقد ضحّتْ أكثر مما تخلّصتْ ، لا تنسي أنّها إنسان ولها حاجات ، وحين تدوس هذه الحاجة في سبيل كرامتها ، وأولادها ، فهي عظيمة ومُضحية ، لا كما يقول النّاسُ عنها مكيودة ، ليس سهلاً أن تتحول المرأة من كائن أنثوي إلى كائن فقط! وهي حين اختارتْ أن تتوقف عن ممارسة أنوثتها في سبيل أولادها وجب أن تُقدّر لا أن يُنهش لحمها في المجالس!

وحين طلبت دعاء الطلاق ، لم يكن هذا عن ردّة فعل ، ولم يكن وليد إهانة واحدة ، كلنا نعرف ، كما تعرفين أنتِ ، أنّها صبرتْ كثيراً ، ولكنّ الصبر ينفد ، وهي امرأة وليست ناقة ، فلماذا نريدها أن تصبر إلى ما لا نهاية؟!

يقول إحسان عبد القدوس : الطلاق ليس سهلاً ، إنّه خدش يبقى في جسم الحياة كلّ العمر!

ودعاء حين عزمتْ على الطلاق ، كانتْ تعرف أن شـرخاً كبيراً سيحدث في حياتها ، وأنّها ستدفع ثمن هذا الشرخ من صباها ووجودها ، ولكن هذا الشّرخ كان سبيلها الوحيد ، كان قشّتها وقد كانت غارقة تماماً!

ويقـول سـاشـا غـيـرث : نادراً مـا يكون الزّواج عن عـقل ، ولكنّ الطلاق يجب أن يكون طلاق عـقل ، لأنّ كل واحـد منهما يعرف الآخر جيّداً!

كلنا كنا نعرف زوجها جيّداً ، كلنا قلنا أنّ زوجها وحش لا يُساكن لما رأينا منه ، وهي الأعرف به لا شك ، وثقي أنّ أشياء كثيرة حصلت خلف الباب الموصد عاشتها دعاء وحدها ، ولم ندرِ عنها شيئاً ، لهذا لمّا استقرّ في عقلها أن لا سبيل غير هذا ، مشتْ فيه!

يحاولُ البعض فلسفة الطلاق ، في حين أنّه أبسط من هذا كثير . . .

قـرأتُ مـرّةً لإحـسـان عـبـد القـدوس قـولاً جـمـيـلاً في صياغته ، ولعبه على الكلمات ، ولكنّه قول مثاليّ ، غير قابل للتطبيق ، أو أنّه من الممكن تطبيقه حين يكون النّاس مثاليين ، ودعـاء كـانتْ واقـعـيّـة ، ولم تكن مـثـاليـة ، مـثلنا جـمـيـعـاً بالمناسبـــة!

يقول إحسان عبد القدوس : يقع الطلاق بين اثنين يحبُّ كلّ واحدٍ منهما الآخر أكثر من نفسه!

لا أحد يُحبّ الآخرين أكثر من نفسه ، وهذا ليس أنانية ، بل إنّ الشخص الذي لا يُحبّ نفسه لا يمكنه أن يحب الآخرين ، وإنّي لا أشكّ أن زوج دعاء أحبّ نفسه أكثر من أي شيء ، وهذا طبيعيّ ، ولكن ليس هذا هو سبب الطلاق ، السبب أنّه لم يترك لها نفساً لتحبّها ، جعلها تكره نفسها ، دمّرها تماماً ، فأرادتْ أن تحافظ على ما تبقّى منها ، فليس كلّ البشر أيوب ، ودعاء أرادتْ أن تعيش ، مثلنا تماماً!

دعكِ الآن من دعاء . . . .

أحسبُ أني أسهبتُ ، وكل ما يجول في خاطري قد قلته ، قد توافقيني وهذا أغلب ظنّي ، فقد خاطبتُ عقلكِ وعاطفتكِ معاً ، وقد تخالفيني ، وهذا حقكِ!

لكِ أن تُقاربي الأمر من زاوية مختلفة ، فيأتي حكمكِ مغايراً تماماً لحكمي ، فأحكامنا عادة تأتي تبعاً للزّاوية التي نرى من خلاله أية قضيّة .

فالليلُ في نصف الكرة الأرضيّة يعني أن هناك نهاراً في النّصف الآخر منها ، وحين يقول أهل النّصف الغارق في الظلمة أن الوقت ليل ، فليس على أهل النّصف القابع تحت

الشمس أن يحملهم على القول بأن النهار ساطع ، وأنا لا أريدُ أن أحملكِ على شيء ، ولا أريدُ أن تحمليني على شيء ، لكِ أن تري فعلها كيداً ، ولي أن أراه فعلاً نبيلاً ، ولكِ بالمناسبة أن تقفي بين بين ، ليس بالضرورة أن نقف بكلّيتنا في كل القضايا ، مع تماماً ، أو ضد تماماً ، هناك منطقة وسطى بين كل رأيين ، ولكِ أن تقفي فيها!

وما دامتْ نافذة القرية مفتوحة ، أطلُّ منها وأخبركِ بما أرى!

أتذكّرُ السّاعة أمّ أحمد . . .

كانت عقيماً لا تلد ، وكنيتها اكتسبتها من زوجها ، فقد كانتْ هذه كنيته قبل أن يتزوّج ، وما إن التحقتْ به تحت سقف الزّوجيّة حتى التحقتْ كنيته بها ، فعرفناها بأمّ أحمد!

كانتْ أم أحمد تُحبّ أولاد القرية بجنون ، وتستميتُ في الدّفاع عنهم حتى عندما كانوا يُخطئون ، وكانتْ دوماً تجد تبريراً لهذه الشيطنة الصادرة من الصّغار ، كان يؤلمها أن يضرب أب ابنه ، أو توبّخ أم ابنتها ، وإذا نَهَرَ الكبار بالصغار قالت قولتها المشهورة : دعوهم فهؤلاء أحباب الرحمن!

كانتْ أم أحمد تجد في عطفها على الصغار تعويضاً عن أمومتها المفقودة ، فالأمومة في النّساء غريزة ، على عكس الأبوّة في الرّجال فإنها بالتجربة!

المرأة أم يا نبض وحتى إن لم تلد!

والرجل ليس بالضرورة أن يكون أباً ولو كان له عشرة من الأولاد!

هذا النُّبل الذي كانتْ تُعامل به الصّغار كان إشباعاً لغريزة الأمومة عندها ، وهذا ما يُسمّيه سيغموند فرويد بالدّفاعات النّفسيّة!

والدّفاعات النّفسيّة عند فرويد هي مجموعة من الأساليب التي تُستخدم بطريقة لا واعية ، لمسايرة أو تقليل التوتر النّاجم عن أفكار سلبيّة لفقد ما ، أو تكون نتيجة دوافع لا شعوريّة لا يُعرفُ مصدرها ، أو رغباتٍ غير مقبولة ، أو صراعاتٍ داخليّة ، أو عدم قابليّة إشباع احتياجات معيّنة!

والحالة الأخيرة هي حالة أم أحمد ، كانتْ تُشبع بهؤلاء الصّغار حاجة الأمومة عندها!

نقص الأمومة في النّساء عجز قاتل ، تشعر المرأة فيه أنّها مصابة بكيانها ، والحالة الطبيعيّة لكلّ فاقدٍ أن يسعى لتعويض ما فقده بالطّرق المتاحة ، وطريقة أم أحمد كانتْ أن تُقنع نفسها عبر الاهتمام بالصّغار ومحبّتهم أنّها وإن كانتْ عاجزة عن الإنجاب ، فليستْ عاجزةً عن الأمومة!

والآليّات الدّفاعيّة عن فرويد تنشأ من نتائج صحيّة أو غير صحيّة ، ويعتمدُ ذلك على الظروف المحيطة ، ونوع الأسلوب

المستخدم ، ودرجة تكراره ، ونسيَ فرويد أن يُضيف نوع الفقد!

لأن الأمومة نُبل كلّها ، كُنّا نرى في أم أحمد شخصاً نبيلاً لأنّها كانت تُشبع غريزة نبيلة ، والأمومة لا تُشبع إلا بالعطاء ، ولو افترضنا أنّ أم أحمد كانت تُعاني فقد الجِنس ، وسعتْ لإشباعه في الآخرين ، كما سعت لإشباع أمومتها في أولاد الآخرين ، لحكمنا عليها أنّها عاهرة ، طبعاً أنا لا أُدافع عن العاهرات ، ولا أقول أن إشباع غريزة الأمومة خارج قنواته الطبيعية يجب أن يكون مساوياً لإشباع حاجة الجنس خارج قنواته الطبيعيّة ، ولكن فكرتي أن الإشباع يكون نبيلاً أو قبيحاً وفقاً للحاجة المفقودة!

الإشباع يا نبض أنانيّ في تصرّفه ، لأنه موغل في الذّاتية ، وغارق في الشّخصانيّة ، فأم أحمد حين أشبعتْ غريزة الأمومة في أولاد الآخرين ، كانتْ تفعل هذا لأجلها لا لأجلهم ، ولكننا نحكم على أنانيتها هذه بالقبول لأنّها تُدغدغُ فينا قيمة عظيمة هي الأمومة!

وما يُسمّيه فرويد الدّفاعات النّفسيّة ، هو عند تلميذه كارل يونغ التعويض!

يرى يونغ أن الشّخصيّة عندما تشعر أنها في حالة صراع نتيجة عجزها عن تحقيق هدف مرغوبٍ فيه ، فأنّها تبحثُ عن

أهداف أخرى لها نفس الجاذبيّة ، ويترتّب على تحقيقها إزالة الصّراع!

وهذه هي بالضّبط حالة أمّ أحمد ، كانتْ في سعي محموم للتعويض عمّا تفقد ، لا شكّ أن عجزها الأموميّ ولّد في داخلها شعوراً قاسياً بالنّقص ، وصراعاً مريراً بين واقعها وغريزتها ، وكان للاهتمام بالصّغار ، ورعايتهم ، وإغداق الحبّ عليهم ، نفس جاذبيّة الأمومة المفقودة!

نحن بما نفقد لا بما نملك يا نبض!

الغريق تغدو كلّ الدّنيا عنده شبراً من يابسة

والأعمى تغدو كل الدّنيا عنده عيناً واحدة

والمشلول تغدو كلّ الدّنيا عنده قدمين

واليتيم تغدو كلّ الدّنيا عنده أباً

والعانس تغدو كلّ الدنيا عندها زوجاً

والعقيم تغدو كلّ الدنيا عندها ابناً

لهذا بالضبط عرفنا أمّ أحمد بما تفقد لا بما تملك

لأنّ حياتنا تدور في فلك ما نفقد!

والأمومة يا نبض نوعان!

أمومة بايولوجيّة ، وأمومة نفسيّة!

والأمومة البايولوجيّة تتحقق بالولادة والإرضاع

والأمومة النّفسيّة تتحقق بالحب والرعاية والاهتمام
لا تكتمل الأمومة إلا بكليهما
فالأمومة البايولوجية ناقصة ، والأمومة النّفسيّة ناقصة
ولأنّ شيئاً أفضل من لا شيء ، رأت أم أحمد أنّ عجزها عن الأمومة البايولوجيّة ، ليس له أن يُقعدها عن الأمومة النّفسيّة ، فسعتْ ولم تقعد!
وأم أحمد ليستْ إلا واحدةٍ من كثيرات مثلها . . .
قرأتُ مرّةً عن امرأة ثريّة ، كانتْ مصابة بما أُصيبت به أم أحمد
أتعرفين ما فعلتْ لتعويض هذا النّقص؟!
أخفتْ هويّة المرأة الثّريّة ، وذهبتْ لتعمل في روضة أطفال ، براتب هزيل ، يتقاضاه أصغر مستخدم في شركتها!
ولا تحسبي أن الأمومة النّفسيّة يسيرة ، ثمّة نساء يرسبن في هذا الاختبار رغم ارتباطه بغريزتهن!
فآسيا بنتُ مزاحم ، لم تكن عقيماً ، ولكنّها ربّت موسى كأحسن ما تكون التّربية ، وأحبّته كأرقى ما يكون الحب ، وأنقذته من جحيم فرعون وأنقذها من جحيم النّار!
بالمقابل فإنّ زليخة زوجة عزيز مصر ، لم يكن عندها أولاد ، وكان المنطق يقتضي أن ترعى يوسف أحسن مما رعتْ آسيا

موسى ، لأنّ آسيا لم تكن تُعاني نقصاً في الأمومة ، في حين أنّ زليخة كانتْ تعانيه ، ولكنّ غريزة الجنس عندها خنقتْ غريزة الأمومة!

نحنُ مركّبون بشكلٍ عجيبٍ يا نبض . . .

تنتظرين من النّاس نُبلاً في موقف ما فيُذهلونكِ بخسّتهم!

وتنتظرين من النّاس خسّة في موقفٍ ما فيُذهلونكِ بنُبلهم!

لا بُدّ لكل نافذةٍ مفتوحة أن تُغلق يا نبض . . .

وليستْ نافذة القرية بدعاً من النّوافذ

فقبل أن تعصف بنافذة الذّكرى ريح الواقع وتغلقها

أريدُ أن أطلّ منها على القرية إطلالة مُودّعٍ!

فأهلاً بكِ معي في النّظرة الأخيرة!

أحدُ الأشخاص الذين لا أنساهم ما حييتُ ، الشّيخ عليّ ، إمام مسجدنا القديم ، رحمة الله تغشاه في قبره ما أطيبه ، وما أنقاه ، ما زلتُ أذكره يا نبض ، رغم السنين الطّوال التي حالتْ بيننا وبينه ، البعضُ لا نعرفُ قيمتهم إلا حين نفقدهم ، والشّيخ عليّ أحد الذين عرفتُ قيمتهم بعد أن فقدتهم!

شأني معه كالكسيح الذي لم يعرف قيمة قدميه إلا حين فقدها

وشأن اليتيم الذي لم يعرف قيمة أبيه إلا حين فقده

وشأن الأَرِقِ الذي لم يعرف قيمة النوم إلا حين فقده
وشأن الأرملة التي لم تعرف قيمة زوجها إلا حين فقدته
وشأن الأعمى الذي لم يعرف قيمة بصره إلا حين اعتمى
وشأن المغترب الذي لم يعرف قيمة وطنه إلا حين اغترب
وشأن الغنيّ الذي لم يعرف قيمة المال إلا حين افتقر
وشأننا جميعاً الذين لم نعرف قيمة السّلم إلا حين اندلعت هذه الحرب!

عندما مات الشّيخ عليّ، وجاء إمام جديد، عرفتُ تماماً ماذا فقدتُ!

البعضُ يُرممون فينا وجع الفقد
والبعضُ يجعلونه أكثر فداحة
وهذا بالضّبط ما فعله شيخ مسجدنا الجديد!
لم يعوّضنا غياب الشّيخ عليّ، وإنّما جعلنا أكثر افتقاداً له!
ملأ المنبر بجسده . . .
والمحراب بصوته . . .
ولكنّه لم يستطع أن يملأ الفراغ الذي أحدثه رحيله في قلوبنا!

كان الشّيخ عليّ مصحفاً يمشي بين النّاس، أو هكذا بدا لي!

طفلٌ كبير . . .

طيّب كدعاء أُم . . .

صادق كآية . . .

نقيّ كماء وضوء . . .

وقريب من الله كسجدة!

لم يكن أكاديمياً بالمعنى الحقيقيّ للأكاديميّة ، ليس معه شهادة جامعيّة من كليّة الشّريعة ، تخرّج كما الأوائل ، من حلقات التّحفيظ ، وشيوخ الحديث ، كان يحفظُ القرآن كجري الماء ، ويشرحه لنا عمليّاً!

ما مرض أحدٌ فلم يزره

وما مات أحدٌ فلم يُشيّعه

ما تخاصم اثنان إلا كان أوّل المُصلحين

وما تشاجر زوجان إلا كان أوّل المُقرّبين

يزور الفقير فيسعده

ويزور الغنيّ فيتعفف عما عنده

بينما شيخنا الجديد كان أكاديميّاً صِرفاً ، يحفظُ الأحاديث بالسّند ، والنّص بالصّفحة ، ولكنّ علمه كان ميتاً لا يُجاوزُ منبره ، ولا يبرح محرابه ، موظّف يُحصّل رزقه بعلمه ، والمسجد عنده ورشة ، يخطبنا ، ويؤمنا ، ويتلقى راتبه ، والسّلام!

صديق الأغنياء وخصيم الفقراء

تعرفه بيوت المسؤولين وتجهله بيوت المساكين

والفـرقُ بينه وبين الشّيخ عليّ يتلخّص في قـول أحـد الصّالحين :

كُنّا نطلب العلم في المساجد ثمّ فُتحت المدارس فذهبت البركة

ووُضعت الكراسي فذهب التواضع

ووُضعت الشّهادات فذهب الإخلاص!

لا أذكرُ مسؤولاً حضر إلى مسجد القرية أيام الشّيخ عليّ فالتفتَ له ، إذا صعد المنبر فغنيّ عن النّاس ، وإذا وقف في المحراب رفع يديه ، وقال الله أكبر ، وألقى الجميع وراء ظهره!

أمّا شيخنا الجديد إذا حضر مسؤول خطب له!

وإذا وقف في المنبر تخيّر آياتٍ تُرضيه!

يتكسّبُ بدينه إذا ما أُمر

ويعرضُ خدماته إذا ما تجاهلوه!

والتّكسبُ هذا دين العربِ على مرّ العصور!

وإنْ كنتُ أستقبحه في الشّعراء ، غير أني أتفهمه ، أن يبيع الشّاعر شعره كأن يبيع الحِرفيّ حرفته ، والتّاجرُ بضاعته ، أمّا أن يتكسّب المرءُ بدينه فشيء أستقذره ، ولا أجدُ في خَلَدي له استحساناً ، ولا في نفسي تبريراً!

كلُّ الذين تعرفينهم من فطاحل شعرائنا أكلوا بقصائدهم!
من النّابغة الذي نصّبناه مفتياً في شِعر الأوليين
إلى المتنبي الذي نصّبناه أميراً للمتأخرين!

انتصر سيفُ الدّولة في إحدى معاركه الكثيرة مع الروم على حدود بلاد الشّام، فدخل شاعرٌ عليه ليمدحه، وأنشده قائلاً:

فكانوا كفأرٍ وسوسوا خلف حائط
وكنتَ كسِنّورٍ عليهم تسلّقا!

فأمر سيفُ الدّولة بطرده من مجلسه، لا لأنّه لم يكن يُحبُّ المتسوّلين بشعرهم، على العكس تماماً، فقد كان سيف الدّولة أحد أشهر الذين أثابوا على التّسوّل الأدبيّ هذا، وقد ارتزق المتنبّي في بلاطه ردحاً من الزّمن، ولكنّ سيف الدّولة استقبح هذا المعنى، وقد كان ذوّاقاً، فالذي يرفعه المتنبي نحو السّحاب، إن رضيَ أن يكون أعداؤه فئراناً فلم يكن ليرضى أن يكون قطّاً!

ثمّ أقام الشّاعر بالباب يبكي...

فأُخبر سيف الدّولة بأمره، فأمر بردّه...

وسأله: ما لكَ تبكي؟

فقال: قصدتُ مولانا بكلّ ما أقدرُ عليه، فلمّا خاب أملي، وقابلني بالهوان ذلّتْ نفسي، فبكيتُ!

فقال له سيف الدّولة : ويلكَ ، كيف تجمعُ حسن النّثر وسوء الشّعر؟!

الشّاهدُ في القصّة أنّ هذا الشّاعر تسوّل بما لم يُحسنه ، وقد كان بارعاً في النّثر على ما يبدو ، ولكنّه لما علم حظوة الشّعراء عند سيف الدّولة أراد أن يُجرّب حظّه ، فأتى «بالعيد»!

لم يكن هذا الشّاعرُ هو الوحيد الذي أتى بالعيد ذات مديح ، فقد سبقه عليّ بن الجهم في حضرة المتوكّل ، مع فارقٍ بسيط أن ابن الجهم كان شاعراً فعلاً ، الشّعرُ له مطواع ، والقافية عنده مُسخّرة ، ولكنّه كان فقيراً في مضامين شعره فقر البيئة التي أتى منها!

ولّما أراد مدح المتوكّل قال له :

أنتَ كالكلبِ في حفاظكَ للودّ

وكالتّيسِ في قراع الخطوبِ

أنتَ كالدّلو لا عدمناك دلواً

من كبار الدّلاء كثير الذّنوبِ

فغضب المتوكّل غضباً شديداً ، وأوغر من حوله صدره على عليّ بن الجهم ، شأنهم شأن المسترزقين الذين جاءهم منافسٌ يزاحمهم في رزقهم ، فوجدوها فرصةً سانحةً ليتخلّصوا منه!

ولكنّ المتوكّل كان حكيماً ، عرف أنّ الحياة التي عاشها ابن الجهم لا تُنتجُ شِعراً غير هذا . . .

فهو لا يُمثّل معنى الوفاء إلا إذا استشهد بالكلب

ولا يُمثّل معنى القوّة إلا إذا شبّه بالتّيس

ولا يُمثّل معنى الكرم إلا إذا قارن مع الدّلو!

فأمر أن يوضع في قصر على ضفاف دجلة ، يرى جميلات الجواري ، يسمع خرير الماء ، ويشمّ طيّب الرّائحة ، ويعاقر زقزقة العصافير ، ويُجالس بارد النسمات ، فأخذت قريحته الشّعريّة تتهذب ، والمعاني الجديدة تختمر في عقله!

ثمّ مرّةً حضر مجلس المتوكل ، فدارت بينه وبين المتوكّل مُشادة ، ولعله نزع لطبعه القديم ، طبع الأعرابيّ الذي لا ينزل عن حق ، فوضع المتوكّل يده على سيفه ، فاستدرك عليّ بن الجهم الموقف ، وأنشده :

دعْ عنكَ ذا السّيف الذي جرّدته
عيناكَ أمضى من مضاربِ حدّه
كُلّ السّيوف قواطع إن جُرّدتْ
وسيفُ لحظكَ قاطع في غمده
إن شئتَ تقتلني فأنتَ مُحكّمٌ
من ذا يُسائل سيّداً في عبده

فابتسم المتوكل، ورضي، وعرف من حوله أنّ الذي أغلظته الصّحراء، رققته البوادي!

وعلى هذا المنوال سار شعراؤنا الذين تعرفينهم، والذين تجهلينهم!

وقفَ شاعرٌ مُعْوَجُّ الفم أمامَ أحدِ الولاة ليمدَحَه، ولكنَّ الوالي لم يُعطِه شيئاً، وإنَّما سَأله: ما بالُ فمِكَ مُعْوَجّاً؟

فقالَ الشّاعرُ: من كثرةِ الثّناءِ على النّاسِ بالباطل!

اشتغلَ العربُ منذ القِدَمِ بالتّجارةِ، وكانتْ قوافلهُم تمخرُ عباب الرِّمالِ صيفاً نحو الشّام، وتُبحرُ برّاً بسُفنِ الصَّحراء شتاءً نحو اليمن، كانوا يبيعُون ما لديهِم ويشترُون ما ينقصُهم، إلا أنّ أشهرَ أسواقهم كان سوق عكاظ وكانوا يبيعون فيه الكلام!

كان الشِّعرُ بالإضافةِ لقيمتِه التّعبيرية والجماليّة وسيلةَ الإعلامِ الوحيدة وقتذاك، وكان الولاةُ يحتاجون للدِّعاية والشُّعراءُ يحتاجون للمال، فنشأتْ أقبحُ ظاهرةٍ عرفها الشِّعرُ العربيّ، ألا وهي ظاهرة التَّكسب، أو كما يطيبُ لي أن أُسمّيها التَّسول بالشِّعر!

صحيحٌ أن التّكسبَ، أو التّسولَ لا يُنقصُ من قيمةِ الشعر ولكنه يُنقصُ من قيمةِ الشّاعر! فقصائدُ المديحِ مدفوع الأجرِ

كانتْ رهيبةً بمستواها الفنيِّ وإن غاب عنها عنصر الصدق!
ولأهمية الصدق في الشعر يذكرُ الجاحظُ في «البيان والتبيين»
أنَّ أعرابياً سُئل : ما بالُ المراثي أجودُ أشعارِكم؟
فقال : لأننا نقولها وأكبادُنا تحترق!

كان النابغةُ الذبيانيّ يحكمُ في عكاظٍ بين الشعراءِ ، وعندما قضَى بأنَّ الخنساءَ أشعر العرب وانفضَّ السوقُ ، ذهب ليبيعَ النعمان قصيدة!

وكانَ الثالوثُ الأمويّ الجميل «جرير والأخطل والفرزدق» ، بالإضافة لشعرهم الرائع في النقائضِ يتكسَّبون / يتسوّلون بقصائدهم من بلاطٍ إلى بلاط!

وكانَ أبو نواس يبيعُ الرشيدَ شعراً ، فهي الوسيلة الوحيدة لتأمين مالٍ طائل يخوّله دخول الحانة «لتمسّه سرّاء» فيثمل ويتغزل بالغلمان!

وكان المتنبي سيدُ الشعر العربيّ متكسباً / متسولاً كبيراً ، فالأحبة الذين تقف البيداء دونهم هو سيفُ الدولة الذي اشترى بسخاءٍ قصائده ، ولكن المتنبي باعه لأجل ولايةٍ يُصيبها ، ولأجل ولايةٍ يُصبحُ «قواصدُ كافورٍ توارك غيره . . من أرادَ البحرَ استقلَّ السواقيا» ، ولأنَّ البحر حنثَ بوعدِ ولايةٍ كان

قد وعدَه إياها يصبحُ «العبيدُ أنجاسٌ مناكيدُ» و«تنامُ نواطيرُ مصر عن ثعالبها» ، ويسرح ويمرحُ «الخِصيةُ السودُ»!

إن كان التكسبُ صفقة بين الولاة والشعراء ، فإن الرابح من هذه الصفقة كان الولاةُ وليسَ الشعراء ، فقد ربح الشعراءُ الحاضر وقتذاك ، ولكن الولاة تخلدوا فربحوا المستقبل/ التاريخ ، وسيفُ الدولةِ وكافور لو عاشا ألف مرة أخرى لم نكن لنسمع بهما لولا المتنبي!

إن كان المتسولون بشعرهم كُثرا فالذين لم يبيعوا قصائدهم كثر أيضاً ، فالخنساءُ مدحت صخراً ودفعت أعصابها ودموعها ، والصعاليكُ لم تكن تعنيهم القبيلةُ كلها فضلاً أن يعنيهم سيّدها ، وابنُ أبي ربيعة الذي عرفناه متهتكاً بشعرِه ، أرسل إليه عبدُ الملكِ بن مروان ليمدحه ،

فقالَ له : عمرُ لا يمدحُ إلا النِّساء!

لهذا لا تستغربي إن وجد الشّعراء عن الولاة حظوة ، هي مصالح متبادلة ، الشّاعر يبحث عن المال ، والوالي يبحثُ عن الدّعاية ، وكلّ وجد في الآخر ضالته!

وحده عمر بن عبد العزيز وقف كالحجر في حلوق الشّعراء! فقد كان للشعراء حظوة عند خلفاء بني أُميّة ، حتى إذا جاء الخليفة الخامس حبسهم عنه ، وتوسّط لهم عنده عديّ بن أرطأة

وقال له : إنّ الشّعراء ببابكَ ، وأقوالهم باقية ، وإنّ الرّسول قد مُدح وأعطى ، وفيه أسوة حسنة!

قال : صدقتَ ، فمن بالباب؟!

فقال : عمر بن أبي ربيعة

فقال عمر بن عبد العزيز : لا قرّب الله قرابته ، ولا حيّا وجهه ، أليس القائل :

يا ليتَ سلمى في القبور ضجيعتي
هنالك أو في جنّة أو جـهنّمُ

والله لا يدخلُ عليّ أبداً ، فمن بالباب غيره؟!

فقال عديّ : جميل بن معمّر

فقال عمر : أليس هو القائل :

أظلُّ نهـاري لا أراها وتلتـقي
مع الليلِ روحي في المنام وروحـها

واللهِ لا يدخل عليّ ، فمن بالباب غيره؟!

فقال عديّ : كثير عزّة

فقال عمر : أليس هو القائل :

رهبـان مكة والذين عـهـدتهم
يبكون من خـدر الفـراق قـعـوداً
لو يسمعون كما سمعتُ حديثها
خـرّوا لعـزّة ركـعـاً وسـجـوداً

أبعده الله عنّي ، فمن بالباب غيره؟!

فقال عديّ : الأحوصُ الأنصاريّ

فقال عمر : أليس هو القائل :

الله بيني وبين سيّدها

يفرّ عني وبها أتبعه

والله لا وطىء لنا بساطا ، فمن بالباب غيره؟!

فقال عديّ : الفرزدق

فقال عمر : أليس هو القائل :

هما ولتاني من ثمانين قامة

كما انقض باز أكتم الريش كاسره

واللهِ لا يدخلُ عليّ ، فمن بالباب غيره؟!

فقال عديّ : الأخطل

فقال عمر : أليس هو القائل :

ولستُ بصائم رمضان عمري

ولستُ بآكلٍ لحم الأضاحي

ولستُ بقائمٍ كالعبدِ يدعو

قبيل الصبح حتى حيّ على الفلاحِ

والله لا يغشى مجلساً أنا فيه ، فمن بالباب غيره؟!

فقال عديّ : جرير

فقال عمر : أليس هو القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا

وقت الزيارة فارجعي بسلامِ

فإن كان لا بُدّ فليدخل هذا!

فدخل جرير وأنشده :

إنّ الذي بعث النبيّ محمداً

جعل الخلافة في إمام عادل

فقال له عمر : اتّقِ الله يا جرير ولا تقل إلاّ حقاً

فقال جرير :

كم باليمامة من شعثاء أرملة

ومن يتيم ضعيف الصوت والنّظرِ

نال الخلافة أو كانتْ له قدراً

كما أتى موسى ربّه على قدرِ

هذي الأراملُ قد قضيتَ حاجتها

فمن لحاجة هذا الأرمل الذّكرِ

فقال عمر : ويحك يا جرير ، قد ولينا هذا الأمر وليس معنا إلا ثلاثمئة درهم ، أخذ عبد الله مئة ، وأخذت أم عبد الله مئة ، ووالله ما عندنا إلا مئة باقية فخذها ولا تعد!

فقال جرير : واللهِ يا أمير المؤمنين لهي أحبّ مال اكتسبته!

فخرج جرير إلى الشعراء فقالوا له : ما وراءكَ؟

فقال : ما يسوؤكم ، خرجتُ من عند خليفةٍ يعطي الفقراء ويمنع الشّعراء ، ثم أنشد :

رأيتُ رُقى الشّيطان لا تستفزه

وقد كان شيطاني من الجنّ راقياً

دعكِ من هؤلاء المتسوّلين الآن ، وعامليهم كما أعاملهم ، أستمتع بنتاجهم ، ولا ألتفتُ إلى حياتهم ، ولو كنا لن نستعذب من الأدب إلا ما استقام صاحبه ، فلن نستعذب من الأدب شيئاً ، لكلّ إنسان زلة ، وزلّة الشّعراء التّكسب!

وعودي بنا إلى قريتنا ، إلى الشّيخ عليّ ، الذي كان يخبرنا أنّ الجزاء من جنس العمل ، وأنّ من قام لله في الظلمة أخلفه نوراً في وجهه ، وواللهِ ما نظرتُ في وجهه إلا خال لي أنّ فيه مصباحاً! قريب من الله ، لصيق بالنّاس ، عفيف كأنّه جُبل بتراب الزّهد وماء الاستغناء!

أذكرُ حين كنّا صغاراً ، يرسلنا أهلنا إلى حلقته ، حيث كان يتفرّغ لنا ، فيعلمنا مما يعرف ، يأخذنا على قدر عقولنا الصّغيرة ، يمازحنا ، ويلاطفنا ، حتى كنا نعد الوقت كي تحين حلقته!

كان يحضّنا على طاعة أهلنا ، ولم يكن يوبخنا ، كان ذكيّاً

يعرف كيف يُربي ، لا يجرح صغيراً في نصيحة ، في رأسه آلاف القصص ، إذا أراد أن ينهى أو يأمر قصّ ، وحدث مرّةً أننا كنا عائدين من حلقته نركضُ كما يفعل الصغار في الطرقات ، فشتمنا مختار الضيعة رغم أننا لم نتعرض له ، وكانت الطريق واسعة ، فلما قصصنا عليه القصة ، سألنا : وماذا قلتم له؟

قلنا : لا شيء

فقال : ولمَ؟

قلنا : لأنه المختار ، وهو كبير . . .

فقال : صاحب الحق كبير مهما صغر ، وصاحب الخطأ صغير مهما كبر!

وقصّ علينا يومها قصّة أصحاب الأخدود!

وكان مرّةً قادماً إلى المسجد ، فشاهد ولدين من طلاب حلقته يُعذّبان قطة ، فأخذها من بين أيديهما ، ولم يقل لهما شيئاً ، وعندما حان وقت الحلقة انتظرنا أن يوبخهما ، ولكنه قال لنا : سأقصّ عليكم اليوم قصّتين!

ثم قال : دخلت امرأة النّار في هرة حبستها ، لا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض!

ودخلت بغيّاً من بني إسرائيل الجنّة بكلب سقته ، كانتْ

تسير في الطريق فأدركها العطش ، فنزلت إلى بئر صغيرة ، وشربت ، ولما خرجت وجدت عند باب البئر كلباً يلهثُ من العطش

فقالت في نفسها : لقد بلغ هذا الكلب من العطش ما بلغني

فنظرتْ حولها فلم تجد ما تسقيه به ، فخلعت حذاءها ونزلت إلى البئر ، وغرفت له ماءً وسقته ، فشكر الله لها وأدخلها الجنة

فسألناه بصوت واحد : ما معنى بغيّ؟!

فابتسم وقال : امرأة شرّيرة!

أما الآن فقد أُقفلت الحلقة ، لأن الرّاتب لن يزيد بها ، ولن ينقص بدونها ، وهذا يا نبض أحد رزايا مؤسسة الدّين! تحويله من فكرة حياتيّة إلى مؤسسة ، يتحول فيها النّاس من دعاة إلى موظّفين ، الدّاعية ليس له دوام محدد ، في عمل دؤوب ، يعمل ليل نهار ، أما الموظف فكل شيء عنده بتوقيت ، وكل شيء عنده بحساب!

مُذ صار الدّين مؤسسة ، صار فيه من المظاهر أكثر مما فيه من الدّين ، ولطالما حرص الأوائل على فصل المظهر عن الجوهر ، كانوا يرون أن التّدين الذي لا يثمر في الحياة تديّن

مشلول ، تماماً كما سأل عمر بن الخطّاب عن رجل ما إذا كان أحد من الحاضرين يعرفه

فقام رجل وقال : أنا أعرفه يا أمير المؤمنين

فقال عمر : لعلك جاره ، فالجار أعلم الناس بجاره ، يرى طبائعه ويخبر أخلاقه

فقال الرجل : لا يا أمير المؤمنين

فقال عمر : لعلك رافقته في سفر ، ففي الأسفار تتبدى الطباع ، وتظهر الأخلاق

فقال الرجل : لا يا أمير المؤمنين

فقال عمر : لعلك تاجرت معه وعاملته بالدرهم والدينار ، فعند الدراهم والدنانير يُعرف أبناء الدنيا من أبناء الآخرة

فقال : لا يا أمير المؤمنين

فقال : لعلك رأيته في المسجد يهز رأسه قائماً وقاعداً

فقال الرجل : أجل يا أمير المؤمنين

فقال عمر : اجلس فإنك لا تعرفه

كان عمر منذ ألفٍ وأربعمئة سنة يُحذّر من المظهر على حساب الجوهر!

فإذا رأيتِ رجلاً يحمل سِواكاً فلا تتسرّعي وتقولي هذا صاحب سُنّة ، أحياناً يغدو السّواك مِسناً نشحذ به أسناننا لنأكل لحوم الآخرين!

وأحياناً تغدو اللحية زيّ عملٍ لا أكثر!

ما فائدة المساجد الكبيرة يا نبض ما دام الصّف الأول لا يكتمل في صلاة الفجر ، ألسنا نحتاج إلى بناء الإنسان أكثر من حاجتنا إلى بناء المساجد؟!

ما فائدة أن نشتري كتب السّير ولا نسير في حياتنا مسيرة أصحابها!

ما فائدة الجهاد إذا صار المجاهد قاطع طريق!

ما قيمة التّدين إن لم يلحظ النّاس فرقاً بين سلوك المعلم المتديّن والمعلم غير المتدين

بين التاجر المتدين والتاجر غير المِتدين

بين الابن المتدين والابن غير المتدين

مصيبة أن لا يكون لنا من حجنا إلا السّبحات وسجاجيد الصلاة

مصيبة أن لا تكون صلاتنا إلا رياضة لتحريك المفاصل

مصيبة أن لا يكون لنا من صيامنا إلا السمبوسة ومسلسل باب الحارة!

التّدين الذي لا ينعكسُ أثراً في السّلوك هو تديّن أجوف ، وأنا لستُ ضدّ كليات الشريعة ، وإنما ضد أن يتحوّل الدعاة إلى موظفين!

أتركك الآن يا نبض ، وأقفلُ نافذة القرية عليكِ وعليّ ، تماماً كما أتمنى دوماً أن أُقفل بيتاً صغيراً عليكِ وعليّ ، وأُنجب البنت التي تُشبهكِ ، والتي لن أسمّيها باسمكِ ، لأنّكِ ستكونين أمّها .

الفصل الثّالث

طُبول

القلبِ

تُقرع

الآن يا نبض أرجعُ بكِ / بي إلى أوّل الحكاية . . . .

هذه الحكاية التي لو عدتُ إلى أوّل الطّريق لمشيتها مرّة أخرى حتى آخر خطوة فيها رغم تعثّر النهاية . . .

هذه الحكاية التي استحالتْ فاجعة ، جديرة بالتكرار رغم فداحة الخطب ، وعمق الجرح . . .

هذه الكأس تُغري بتجرّعها مرّة أخرى حتى آخر رشفةٍ فيها رغم حنظل الختام!

لا أريد أن أستبق الفاجعة الآن . . .

فلينتظر بومُ صدري فله وقت ينعى فيه بالخراب!

لنعُد إلى مطلع القصيدة

حيث بدأ أول خفقٍ موزون لقلبي على بحرِ عينيكِ

متعاشقن / متعاشقن / متعاشقن!

تفعيلة واحدة ، بلا جوازات!

اليوم هو يوم ميلادي يا نبض . . .

لا أعرفُ لماذا كلما مرّ بي هذا اليوم تذكرتُ المرة الأولى التي رأيتكِ فيها . . .

ألأنّكِ ميلادي في وجه ميلادي ، وعمري في وجه عمري

أو لأنيّ كما أخبرتكِ من قبل أُؤمن أن الإنسان في لحظة ما يولد إنساناً جديداً غير الذي كان عليه ، وأنا مُذ رأيتكِ ولدتُ من رحم عينيكِ ، ولم يعد يمكنني الرّجوع قبلكِ!

أتذكّركِ جالسة في مكتبة الجامعة . . . .

ساحرة كأنّكِ قصيدة جاهليّة نظمها ابن أبي سُلمى بعد أن بلغ من العمر / الشّعر عتياً . . .

عابثة بالقلبِ كغزل ابن أبي ربيعة . . .

عذبة كبيتٍ لأبي نوّاس . . .

آخذة بتلابيب القلب كرثاء ابن الروميّ ابنه الأوسط . . .

تكللكِ هالة من الحكمة كأنّكِ كقصيدة للمتنبي . . .

في يدك اليسرى كتاب ، وفي يدك اليمنى قلم تمنّيتُ أنّه أنا!

تارة تضعينه على شفتيك فأقول في عقلي كان الله في عونه

وتارة تخطين في الكتاب فأقول عثرت العيون الحلوة على ضالّتها!

قبلكِ لم يجذبني في المكتبة إلا الكُتب!

ولكن كان فيكِ شيء لا أعرفُ حتّى اللحظة كيف أصفه ، يُشبه تذوّق شيء جديد لا نعرفه من قبل ، نقضم بحذر ، ثم لما يسحرنا الطعم لا يعود بإمكاننا أن نتوقف

لا أقـولُ وقـعت في حـبكِ من النظرة الأولى ، لأني أعي جيـداً أن الحب الحقـيقي ليس شـأن العـينين وحـده إنه شـأن الكيان كله ، ولكني رغبت جداً بمعرفتك تلك اللحظة ، هكذا هو الحب غـالبـاً ما يبـدأ بالانتـباه والفـضول ، ثم يدفعنا صوب الآخر دون الكثير من التعليل .

أردت بشـدة أن أعرف أي الحدائق هي أعماقك ، فقد كان يبـدو جليـاً أن هذا الصـمت والهـدوء ينطوي على أشـيـاء لا ندركـها بالنظر من بعيـد ، لقـد قلتُ في نفسي تلك اللحظة لو كانت هذه المرأة كتاباً لكان من الظلم أن نختصرها بأي عنوان ، ولو كانت قصيدة لكان تقييدها بأي وزن جريمة لا تغتفر .

الكلمات سجن يا نبض وأكثر مشاعرنا صدقاً لا تُكتب ، فكلما كتبناها كنا أقرب للتخلي عنها منا إلى توثيقها ، لذلك يظن القارئ أن العـاشق حين يصف حبيبته يسـتعين بالكذب كثيراً ، غير أنه فقط يحاول أن يُحمّل الكلمات أكبر قدر من مشـاعره وهو خـائب مهمـا حاول ، تماماً كخيبتي في مـحاولة كتابتكِ!

ظللتُ أياماً أتردد على المكتبة لأراكِ فقط ، وكنتُ أنتظرُ فرصة لأبدأ حديثاً ما معك ، فكرت بأن أسألك عن الكتاب الذي تقرئينه ، ولكني رأيتها حجة باهتة ولا تؤدي إلى شيء ، ثم فكرت أن أتعمد الاصطدام بكِ كما يحدث في الأفلام ، ولكن ذلك بدا لي أشد الأفكار سخافة!

تأخرتِ يوماً عن موعد مجيئكِ ، انتظرتك طويلاً حتى بدا لي أن باب المكتبة عدوّي ، يتعمدُ أن يُدخل عليّ غيركِ ، استغربت تلك الخيبة التي شعرتُ بها حين لم تأتي ذلك اليوم ، أو لعلي استغربتُ تلك البهجة التي كان حضورك يتركها في نفسي ، فالحزن غالباً هو غياب السعادة أو إدراك غيابها ، ولكن كان عليّ حسم الأمر ، إما التقدم أو التراجع ، فالبقاء على حافة الهاوية خطِر كالنزول فيها ، إما أن نجازف وننجو ، أو أن نقفز ونسقط ، وعلى الحالتين أرحم من البقاء مُسمّرين ، قد يخسر الشجاع وقد يكسب ، ولكن الجبناء يخسرون دائماً حتى وإن ظنوا وهماً أنهم احتفظوا بشيء ما .

انتظرتك في اليوم التالي ولم تأتي أيضاً ، وكذلك في اليوم الثالث ، هنا تحول الحزن على غيابك إلى قلقٍ عليك ، فكرت أن أبدأ بالبحث عنك من مكانٍ ما ، ولكني لم أكن أعرف حتى اسمك ، كيف أسأل عن امرأة لا أعرف عنها سوى مكان تجلس فيه لتقرأ؟

بعد أيام وقد يئستُ تماماً أن أراكِ مجدداً ، رأيتكِ في باحة الجامعة مصادفة ، شعرت وكأن الدماء فجأة تدفقت في شراييني أو أني بدأت بالتنفس فجأة وكأني كنت أحبس أنفاسي طيلة أيام ، وقررت أن أتقدم إلى الهاوية .

عندما انتظرتك في المكتبة ذلك اليوم لم يكن لدي نية أن أبقى متفرجاً من بعيد ، لقد عزمت أن أفعل شيئاً ، لم يكن لديّ أي خطة ، لأني أعرف جيداً أن كل ما يعد مسبقاً في أمور القلب محكوم بالفشل ، لا أذكر أني كنت على هذه الدرجة من التوتر قبل الآن حتى في يومي المدرسي الأول ، بدت لي المكتبة ساحة حرب وشعرت كأني أتقدم إلى حتفي ، أليس الحرب والحب أخوين في النهاية؟

وهذا لا علاقة له بتشابه الحروف البتة بل بتشابه الحتوف ، كلاهما يجعلك تقف في منتصف الموت والحياة ، وكلاهما لا يقبل في صفوفه غير أصحاب القلوب الجريئة ، وكلاهما يقلب الحياة رأساً على عقب ، ولكنهما في نقطة ما ضدان لبعضهما تماماً . . ففي الحب حتى الموت حياة ، أما في الحرب فحتى الحياة موت!

حين جلستُ في المقعد المقابل لكِ ، رفعتِ بصرك عن الكتاب تلقائياً فسألتك إن كان يمكنني الجلوس ، بدا لي كأن

ملامحك تحولت لعلامة استفهام ولكنك لم تسألِي شيئاً بل اكتفيتِ بهزة من كتفيك وشبه ابتسامة ، قلت لكِ بعد دقيقة صمت : هل أستطيع معرفة اسمك؟

- نبض

ثم ابتسمتِ مضيفة : اسم غريب ، صحيح؟

فكرت في كلمة «غريب» ، لم تبدُ لي الكلمة المناسبة لوصف العلاقة بينك وبين اسمك ، الغريب أن يكون لكِ اسماً عادياً بينما أنتِ امرأة غير عادية ، غير أني لم أعقب بأكثر من ابتسامة ، صحيح أنه ليس حديثي الأول عنك مع نفسي ، ولكنه حديثي الأول معك ، ولم أرغب أن يخطر لكِ حين أحدثك بحقيقة ما يدور في خلدي أني أفعل ذلك تملقاً .

- أظنك من محبي القراءة فقد لاحظتك هنا كثيراً .

- على الجميع أن يحب القراءة .

- يبدو أن الكثير من الناس لا يحب القيام بما عليه .

- الواجب دائماً ثقيل ، وقلة من لديهم اللياقة الكافية لحمل الأثقال .

طيلة حوارك معي كنتِ محتفظة بابتسامتك التي تجعل جدية الحديث أقرب للفكاهة

ثم سألتني :

- وأنت ، ما علاقتك بالكتب؟

- أحاول جاهداً أن أجعلها وثيقة ، أحاول أن أقرأ دائماً ، وأن أكتب أحياناً .

- شاعر؟

- لا لستُ شاعراً بالمعنى الدقيق للكلمة ، أميل إلى الكتابة الحرة والنثر أكثر من القافية والوزن ، التحرك في المساحات الواسعة يناسبني أكثر ، الوزن قيد ، وأنا لا أحبُّ القيود!

اتسعت ابتسامتك مع الجملة الأخيرة وبدا كأنك تفكرين في سؤال ما ولكنك قلتِ بدلاً من ذلك :

- الشعراء أكثر الناس كذباً على كل حال .

- تلك ضرورة الشعر ، إذا لم تكن تجيد الكذب فلن تجيد الشعر ، رغم أنه ليس كذباً بالمعنى الدقيق ، لنقل مبالغات أو براعة في التخيل ، وأحياناً أخرى أمنيات ، قد يحكي الإنسان أمنياته على هيئة كذبة ، ويصوغها الشاعر على هيئة قصيدة .

- أفهم ذلك ، لديّ اعتقاد راسخ أيضاً بأن داخل كل إنسان يوجد شاعر ، قد يُسمح للبعض باكتشافه فيغلب على طبعه الشاعرية ، وقد يقتل بشكل ما بداخل البعض الآخر فيغلب على طبعه الجمود ، ذلك أن الشعر ليس مجرد كلمات

متناسقة مهما ظن الشعراء ذلك ، فكل العشاق مثلاً شعراء ، ولكن ليس كل الشعراء عشاق . . ذلك أن الشاعر يملك قدرة وصف شفاه ملهمته مثلاً بأجمل الصفات ، ولكن العاشق يضع على شفاه حبيبته قبلة . . وتلك هي قصيدته ، وقد يطيح عناق واحد بين عاشقين بأعظم القصائد التي تصف جيد امرأة ، كذلك فإن دمعة واحدة من عين أم فقدت طفلها قد تكتب ألف معنًى في الحزن يوازي ألف قصيدة رثاء ، الشعر يعيش فينا أكثر مما يعيش في الكلمات ولكن علينا أولاً أن نتعلم القراءة بقلوبنا .

- هل تعلمين أنكِ جمعتِ بين صفتين لا يمكن الجمع بينهما في حديثك السابق؟

- ما هما؟

- أخبرك في الغد ، يجب الآن أن أذهب . .فقد مرت عشر دقائق على موعد محاضرتي دون أنتبه!

لم أكن أرغب بالنهوض وقتها يا نبض ، ولم أكن أحفل بالمحاضرة ، ولكن كان عليّ أن أضمن لقاءك القادم ، ولم تكن لديّ طريقة أخرى سوى أن أعلقك ببقايا الأحاديث التي لا تكتمل .

وجدتك في نفس المكان وكأننا لم نفترق أبداً ، وهذا أكثر ما كان يدهشني فيك ومعك ، جمال الحديث بيننا لا يقف

فقط عند كونك قريبة من القلب وحسب ، بل لديك تلك الألفة التي تشعرني بأني كنت أعرفك منذ وقت طويل ، أجد لديك أريحية العلاقة بين الأصدقاء ، وشغف العلاقة بين العشاق ، حنو الأمهات ، واحتياج الأطفال ، والأجمل أنني كلما التقيتك استطعت أن أكمل معك من حيث توقفنا ، كأن الزمن عاجز عن الدخول بيننا ، وكأننا كنا معاً طيلة الوقت وتلك الفواصل الوقتية لا تعنينا .

تبادلنا التحايا

وبعد فترة صمت قصيرة قلتِ بهدوء :

- ما هما؟

- العاطفية والذكاء ، أمران قلما يجتمعان

ثم أضفتُ متعمداً

- لا سيما في امرأة

- لِمَ لا؟

- العقل والقلب شركاء متشاكسون ، وعلى المرء أن يكون على قدر عالٍ من الحكمة حتى يسمح لهما بالتحدث في ذات الوقت دون أن يطغى صوتٌ على آخر ، أو تختلط الأصوات فيتوقف الفهم ، في حديثك البارحة كنتِ تفسرين الشعر بعاطفية ذكية ، دون أن تجعلي الفكرة خيالية أو غير مقبولة ،

كأنك تعدين مزيجاً سحرياً بين الواقع والشعر .

- تزعجني المفاهيم الجاهزة ، وأظن أنها يجب أن تزعجك أيضاً ككاتب قبل أن تزعجك كإنسان ، أليست مهمة الكاتب أن ينفض الغبار عن الأفكار ، يزعزع رتابتها ، ويعيد تشكيلها ، أو تعديلها؟ ثم هل يمكن أن تخبرني بتعريف دقيق لكلمة «واقع» التي ذكرتها؟

- المتعارف عليه أو السائد ، طريقة الناس في التعايش ، المقبول اجتماعيّاً والمرفوض ، كل هذا يلخص الواقع بشكل ما .

- من الذي يحدد الممكن من عدمه؟

- الإمكانيات ، الظروف والشروط الحياتية ، يتفاوت هذا بين إنسان وآخر وبيئة وأخرى ، ولكن ثمة أشياء تعارف الناس عليها فشكلت خطوط واقعهم .

- أجل ، ولكن معظم هذا الذي ذكرته هو مجموعة أفكار لأشخاص آخرين كانت صالحة لطريقة العيش التي يرغبون ، واقعك هو طريقة تفكيرك ، ومفاهيمك الخاصة ، قناعاتك وهذا شيء لا يكون بالوراثة على الأقل لمن لا يريد ذلك ، طبعاً هذا يصعّب الحياة كثيراً ، ولكن متى كانت الحياة متساهلة مع أحد ، إن سهولتها حين تحدث يجب أن تخيف الإنسان لا أن تريحه ، ذلك أن أفضل معلم في مدرسة الحياة هو الألم ، وحين

تتجنب أن تجمع إنساناً به فهي إما أنها تنوي أن تجعله يخوض أصعب اختباراتها دون تأهيل ، أو أنها تراه جديراً بالجهل الدائم والأمية ، ومع ذلك فإن أغلبنا يقاتل من أجل الرتابة التي تبدو له أقل خطراً ، إذ يفضل أن تسير حياته ببؤس على أن يغامر بكسر حاجز وجد نفسه خلفه ولم يجرؤ على السؤال عن سبب ذلك .

- نعم ولكن قوة الإرادة تتفاوت بين الناس ، والكثرة تغلب الشجاعة ، الغالبية من الناس تريد حياة تشبه الآخرين ، بل وتجزع حين يحدث خلل أو نقص عن سواها ، مفهوم الناس عن العيش يختلف تماماً عن فكرتك حول القناعات الخاصة والاختلاف ، وإن كنت أتفق معك حول صحتها كمبدأ ، ولكن تطبيقها يقلل من نسبة صحتها ، بل قد يجعلها خاطئة أحيانا ، ذلك أن العقل الجمعي هو الغالب ، الناس يعيشون كجماعات لا كأفراد وبالتالي يجدون العادات أقوى حتى من المعتقدات والأديان ، الأشياء المألوفة وإن كانت خاطئة تنتصر في الغالب على الأشياء الغريبة وإن كانت أشد صواباً .

- كل الأشياء تبدأ غريبة ثم تؤلف .

قلتِ ذلك بإصرار ، وأنتِ تنظرين مباشرة في عينيّ ، أطلت النظر إليك حينها مفكراً ، ثم قلت دون تركيز :

- بعضها تبدو مألوفة جداً رغم غرابتها

كنت أحاول أن أتخلص من ذلك الشعور بالبلاهة الذي اعتراني لحظة دخلت في عتمة عينيك ، كانت المرة الأولى التي تتحد فيها نظرتانا ، فغالباً ما كنتِ تشيحين ببصرك أو تخفضينه .

- «كل غريب للغريب نسيب»

قلتِ ذلك وكأنك تضعين نقطة في آخر سطر من الحوار .

مع كل لقاء بيننا يا نبض كنت أشعر أني أفتح باباً في دهليزك ، وكلما عرفت جزءاً منك ازددت عطشاً لمعرفتك أكثر ، اللذيذ بكِ هو أن الصفات المتناقضة حين تجتمع فيك تنسجم بشكل غريب ، مظهرك من الخارج يوحي بأنكِ أكثر الكائنات هدوءاً ، ولكن من يقترب منك يعرف أنكِ تحملين في داخلك أجيجاً ضارياً ، كما لو كنتِ بركاناً محاطاً بالجليد ، في عينيك حزن صامت ، ربما يوحي به سوادهما ، إلا أن وجهك يحمل نضارة الربيع وبهجته ، قلبك ناعم كالقطن ، لا يمكن لأحد أن يدخله إلا ويرغب في المكوث فيه أبداً ، تحبين الحياة ، بالأحرى تحبين خلق الحياة في كل شيء ، رقتك لا توصف ولكنها لا تُضعفك بل تزيدك قوة ، تجمعين بين الحنان والعناد بشكل لا يجعلهما يتناقضان البتة .

صـرت أنتظر اليـوم التـالي لأراك ، وبداخلي شـعـور أنكِ تفعلين ، أصبح الليل عندي يمثل الاشتياق إليك ، ويمثل النهار انتظار رؤيتك ، لم أعد احتاج أن أخلق الحيل لنلتقي ، كأنكِ أيضاً أدركتِ كيف تضرب القلوب مواعيدها دون أن تأخذ إذناً من أحد ، لم أعد أنتظرك في المكتبة ، كل مكان أراكِ فيه هو موعد جديد ، باحة الجامعة ، مقهاها ، الرواق المؤدي إلى القاعة الدراسية ، بوابة الخروج ، الحديقة الخلفية ، وأخيراً شاطئ البحر .

كان يوماً توعكت الشمس فيه قليلاً فاحتجبت بغيمة ، وكأن ذلك الظل هو الحجة التي أحتاجها لأطلب رفقتك إلى الشاطئ ، قلتِ لي مازحة : أقبل إذا اشتريت لي كوباً من المثلجات .

أجبتك وكأن عدوى المرح التي لديك انتقلت إلي : وطائرة ورقية إذا أردتِ!

- أريد

- هي لك

كلانا حصل على ما يريد ، وكان كل ما أريد هو أنتِ .

تحملين كوب المثلجات بيدك ، وتربطين خيط الطائرة على معصمك ، وتسيرين بجانبي حافية القدمين على الشاطئ ، كل

شيء بدا لي تاماً في تلك اللحظة ، وجودك كان يجعلني أشعر بالكمال بطريقة لم أعهدها من قبل ، يجعلني أكتشف طاقة الحياة الكامنة بي دون جهد يذكر ، يكفي فقط أن تكوني . . طرحت علي سؤالا مباغتا فشعرت للحظة أنك تقرئين أفكاري :

- هل تظن أن ثمة علاقة حب بين الشاطئ والبحر؟

- يبدوان لي رفيقين أكثر منهما عاشقين .

- أنا أظنهما عاشقين .

- ما الذي جعلكِ تظنين ذلك؟

- لأن البحر يمسح ذاكرة الشاطئ بعد كل عابر ، ألا ترى؟ كأنه يغار!

- وربما لا يفعلها بدافع الغيرة ، بل بحنان الأصدقاء ، فهو يعرف أن العابر الذي يترك أثراً لا يكون مجرد عابر ، بل مقيم راحل ، والأصدقاء يساعدون بعضهم على النسيان .

- وكيف تفسر تمدده في الليالي المقمرة ، وكأنهما عاشقان برح الشوق بهما حد العناق؟

- لعلهما يتبادلان الهموم حينها ، فيعانق أحدهما الآخر مواسياً لا مشتاقاً .

سحبتِ نفسا عميقا وكأنك تحاولين ملأ رئتيك بأكبر قدر من هواء البحر ، ثم تنهدت هامسة :

- لو كنت شاطئاً لرغبت أن يعشقني البحر .

- ألا تخشين أن يعشقك من صفته الغدر؟

- الغدر في نظري هو الترك وليس الأخذ ، الجفاف لا الغرق ، إذا كان البحر غداراً لأنه يأخذ ضحاياه إلى أعماقه ، فكل العشاق بهذا المعنى يتسمون بالغدر ، لأن كل عشق لا يستحوذ عليك ويغمرك ويغرقك لا يعول عليه .

وجدت الفرصة مواتية لأتسلل إلى قلبك وأتعرف على مشاعرك دون أن أبدو متطفلا أو فضوليا ، سألتك محاولا أن أبدو حياديا ما استطعت :

- إذا عشقك البحر ، هل تبادلينه ذلك العشق ، أم أنك من النساء النرجسيات اللواتي يردن جمع أكبر عدد من العشاق ليشبعن غرورهن ، بينما يتركن قلوبهن فارغة؟

- هل أبدو لك كذلك؟

- السؤال لي ، لا تتحايلي

- لا ، لست نرجسية . . ولا أجد الغرور صفة تدعو للفخر بل للخجل ، لا يتعالى إلا أحمق يظن أنه يملك شيئاً ، أو يدرك شيئاً ، ولو كان يدرك حقاً لعلم أن ما يملكه الفاني لا بد أن يكون فانياً ، كما أني لا أترك قلبي فارغاً ، القلوب التي تفرغ تحكم بالموت وإن كانت تنبض ، حين خلق الله الأفئدة جعل

حياتها الحب والإيمان ، وإذا ما فرغت منهما يعني أنها أصبحت خراباً .

- هل تتعرفين على الحب إذن إن وجدته؟

- قد أستغرق وقتاً لأعرف ، وقد أعرف وأرفض أن أصدق ، وقد أصدق وأرفض أن أعترف ، الحب فخ جميل ولكن ليس كل من ينصبه لنا يريدنا نحن بالضرورة ، الكثير ينصب الفخاخ لأجل متعة الصيد لا أكثر ، وحين نقع سيبقى الأسر ويرحل الآسر .

- من يحبك يرغب أن يوقعك في قلبه لا في فخه

- إذا وجدته سأقبل أن أقع مغمضة العينين

قلتِ ذلك ثم رفعتِ بصرك حيث تحلّق طائرتك الورقية ، وحررت أصابعك الخيط الذي يربطها بمعصمك وكأنك تطلقين سراح شيء ما .

مرّ شهر كامل منذ عرفتك ، شهر من الأحاديث المواربة ، والتخفي خلف تبادل الأفكار لتبادل المشاعر ، كنت كلما اشتقت إليكِ قرأتُ لك قصيدة مشتاق وزعمت أنها أعجبتني ، وكلما كتبت لكِ رسالة ليلية خانتني شجاعتي صباحاً وأخبرتك أنها نصي الجديد وطلبت رأيك ، وأظل أراقبك وأنتِ تقرئين ونفسي تتوق إلى أن تقول لكِ : إنك تمسكين قلبي بين يديك وكل ما فيه لك .

تعقبين :

- نص جميل ، بمثل هذه النصوص يجب أن تتجمل النساء لا بالحلي ولا بالمجوهرات .

- هل كنتِ سعدتِ لو كان لكِ؟

- كنت سعدت طبعاً ، لو كان ما فيه كُتب لي ، وليس عني .

- وهل ثمة فرق؟

- فرق كبير

- أخبريني . .

- أن يُكتب نص لي يعني أن كل سطر فيه كان مسكوناً بي وحدي لا بالقرّاء ، أن الشعور المشروح فيه صادق لأنه يخاطب المعني به مباشرة ، أما النص المكتوب عني فهو لقارئه ، شعور محنط لا يراد منه سوى فخر الكتابة ، ونشوة الإبداع ، لذلك فرسائل الحب حين تنشر تغادر كونها رسائل حب ، وتصبح مجرد رسائل أدبية قد يهديها عاشق مبتدئ لحبيبته ، أو يشرّحها ناقد أدبي بمشرطه الثقافي ، أو حتى قد توقد بها إحدى الأمهات تنورها لإعداد رغيف خبز .

-ستكونين عاشقة صعبة

قلتُ ذلك وأنا أحاول أن أداري رغبتي في أن أصرخ في وجهك بكل كلمة مكتوبة في الورقة التي بين يديك ، وأعلمك

حروف الحب حرفاً حرفاً كي لا تفلت مني طريقة واحدة من طرقه إلا اعترفت لكِ من خلالها أني أحبك ، ولكني لم أرغب أن أقول الحب ، حتى أفعله ، أردتك أن تشمي رائحة شعوري ، أن تتنفسيه وتبصريه قبل أن تسمعيه مني اعترافاً .

-ليس لديّ مثل هذه النية

-أي واحدة؟ عاشقة ، أم صعبة!

ابتسمتِ دون تعليق ثم قلتِ كمن يريد أن يغير مجرى الحديث تماماً :

- انتقلنا إلى منزل جديد بالأمس ، لم أستطع النوم على فراشي الجديد ، لذلك أشعر كأن هذا اليوم لن ينقضي من شدة الإنهاك الذي أشعر به

- هل وضعتِ مرآة تحت وسادتك؟

عقدتِ حاجبيك مستفهمة فقلتُ :

- هناك أُسطورة شعبية تقول أن على الفتاة التي تنام في سرير جديد أن تضع مرآة تحت وسادتها لترى في منامها الرجل الذي ستتزوجه .

اتسعت ابتسامتك وكأن ما قلته قد أمتعك :

- لديّ مرآة أفضل ، هي قلبي

- إذن ، هل من صورة ظاهرة بها؟

- لم تتضح تماماً بعد
- ربما يجب أن يقترب أكثر
- لا أعرف ماذا ينتظر؟
- قد يكون بابك مغلقاً
- العشاق الحقيقيون يجيدون التسلل من النوافذ
- يفعلون ذلك حين تنزل حبيباتهم الجدائل إليهم
- إذن هل تقترح أن أرمي جدائلي من نافذتي الليلة؟
- التجربة لا تضر
- وإن عثر عليها اللص لا العاشق؟
- اجعلي المقص بالقرب منكِ تحسباً

كنت أرى في عينيك بوضوح ، وأقرأ في ابتسامتك بجلاء أنكِ تقاسمينني ذات الشعور ، وتحاولين جاهدة كلما غلبكِ ضعفك أن تأخذي دور السخرية أو الفلسفة ، كنتِ تنتظرين أن أعترف ، وكنت أنتظر أن تفهمي .

معكِ يا نبض كانت الحياة تمضي بعجالة ، كنت أشعر أني أريد أن أمسك بها وأطلب منها التريث قليلاً ، لا أعرف كيف حدث وأيقظتِ كل ما هو نائم وبعثتِ كل ما هو ميت في أعماقي ، صرت مستعداً للحب فقط ، حتى ألد أعدائي صرت مستعداً لحبه ، كأن قلبي لم يعد يقوى إلا على الشعور بالحب .

كنت أحب كثيراً حين نترافق لحظة الخروج من الجامعة ، تمشين بجواري وكأن الطريق يصبح أقصر ، وكأن الشمس تصبح ألطف ، وكأن المسافة الوحيدة التي يجب أن أقطعها هي المسافة بين يدي ويدك ، وكأني سأصل حيث أريد حين أشبك أصابعي بأصابعك .

كنا نقطع الرصيف ذات مرة حين لفت نظرك شيخ مسن جالس وحده على الرصيف ، كانت تلك هي المرة الأولى التي تلمس يدك يدي ، بعفوية أمسكتها لتوقفيني ، لم استوعب ما كنت تقولين في البداية ، لأني كنت أحاول استيعاب لمستك ، أعدتِ قولك وأنتِ تتجهين إلى الشيخ وتنتظرين أن أتبعك : لا بد أنه يعاني من التعب ، أو أنه تائه .

جلستِ بجواره وسألته بلطف بالغ : هل أنت بخير؟

نظر إليك قليلاً ثم قال : أريد بعض الماء

نظرتِ إليّ مستغيثة ، وحينما عدت بالماء وجدتك مستغرقة بحديث ودي مع الشيخ وكأن بينكما رفقة أعوام ، لم تكن تواجهك أي صعوبة في التعامل مع المسنين والأطفال ، كنت تقولين لي دائماً أن القلب والعقل يستعيدان صفاءهما حين يكبر الإنسان فيعود طفلاً ، وكنتِ تقولين أيضاً أن الطريقة المثلى للتعامل مع الأطفال هي أن نصبح أطفالاً معهم ، لم يكن

الشيخ يعرف أين هو ، كان قد ضل طريقه إلى منزله ، لم يكن يستطيع تذكر شيء ، كان يبدو تائهاً وغير قادر على استيعاب الأسئلة التي كنتِ تحاولين من خلالها معرفة شيء قد يساعد على إيجاد عائلته ، لكنك بقيتِ إلى جواره بصبر ، حاولنا معاً لساعات البحث عن شخص يعرفه ، ثم اقترحتُ عليكِ أن نسلمه للشرطة إذ لابد أن عائلته قد أبلغت عنه ، لم تستطيعي الذهاب قبل أن تتأكدي من أن المسن بأمان ، كنتِ تحاولين جاهدة أن تشعريه بأن كل شيء سيكون على ما يرام ، وأننا في الطريق إلى المنزل .

في طريق عودتنا كنتِ تبدين حزينة وصامتة ، سألتك : ما بك؟

- هل تعلم؟ نحن عبارة عن ذاكرة ، حين نفقدها نفقد ذواتنا ، حتى أقرب الناس إلينا يعيشون في ذاكرتنا لا في قلوبنا ، الأماكن التي عشنا فيها ، الأسماء التي ناديناها عمراً ، الأبواب التي حملنا مفاتيحها ، العتبات التي حفظت خطواتنا ، كل هذا يمكن أن نفقده في لحظة نسيان .

-للقلب ذاكرته أيضاً يا نبض ، ربما ينسى العقل اسماً ولكن الشعور يبقى ، القلب يتذكر أحبابه ويقتفي أثرهم ، نحن لا نفقد ذاوتنا إلا حين يتم نسياننا من قبل من نعيش فيهم ،

إذا كان ثمة من يتذكر من أنت ، ويحرص على أن يبقيك حياً فيه ، فلن تفقدي ذاتك وإن فقدتِ ذاكرتك .

- كان يبدو وحيداً جداً ، كل هذه الأعوام التي قضاها في هذه الحياة لم تشفع له بإنسان يراقب خطواته حين فقد قدرته على معرفة طريق العودة ، كل هذا العمر لم يصنع له عكازاً لشيخوخته ، كيف تسرق منا الحياة كل ما حصلنا عليه في رحلتنا معها ، كيف ترسلنا هكذا صفر اليدين ، حتى من أبسط الأشياء . . ذكرياتنا!

- ربما لأن كل ما منحتنا إياه كان مجرد إعارة ، الحياة يا نبض مؤقتة وإن طالت ، فمن الطبيعي إذن أن يكون كل ما فيها مؤقتاً ، أنتِ أفضل من يدرك ذلك ، أعرف أن الرحمة في قلبك تجعلك تشعرين الآن وكأنك مسئولة عما رأيته من حال المسن ، أرى بجلاء كم تشعرين بالرغبة في مساعدته ، ولكن يا نبض ثمة أمور لا نملك أن نغيرها ، الحياة تقتضي ذلك ، لا يمكنك أن تحملي نفسك المسؤولية عن آلام كل الناس الذين تقابلينهم ، ستبذلين ما بوسعك لمد يد العون ولكنك لا تملكين قدرة تغيير القدر ، أو منع الألم ، ثمة شيء يقدّر على الإنسان وعليه أن يعيشه ، ولا أحد يمكنه إيقاف ذلك .

- أعرف ، غير أن المعرفة وحدها لا تكفي ، زعزعتني كمية العجز وقلة الحيلة لشخص بدا لي وكأنه مهجور حتى من قِبل

نفسه ، هل رأيت كم بدا بعيداً عنه وغير قادر على الوصول؟ كأن ثمة مسافة لا يمكنه قطعها بينه وبين ذاته . لكن ليس هذا هو ما أزعجني ، ليس لدي الحق في الاعتراض على القدر ، ما أزعجني هو أن يُترك مثله وحيداً دون عمل أي احتياطات في حال خروجه دون علم أحد ، نحن بحاجة إلى أن نحمي الضعفاء منا ونرعاهم ، إننا بذلك نحمي إنسانيتنا أكثر من كوننا نسدي خدمة لهم .

كنت أعرف أنكِ تدركين كل ما قلته ، ولكن لديك قلب لم أجد في الكون أحن منه ، تقاسمين الناس معاناتهم كما لو كانت معاناتك ، كلما أخبرك شخص عن مشكلته لا تكتفين بالاستماع بل دائماً تبادرين إلى إيجاد حل ما ، كنت أعرف أنك لا تتوقفين فقط عند التعاطف مع الآخرين ولكنك تفعلين كل ما بوسعك لمساعدتهم ، كنت أحب هذا فيك وأكرهه في نفس الوقت ، أحبه لأنه يشرح بجلاء أي قلب عظيم لديك وأي روح مؤثرة تحملين ، وأكرهه لأني أعلم كم ينهكك ويجعلك تتحملين من أحزان غيرك ما لا تطيقين ، لكني كنت أعرف أنك تملكين أيضاً قوة تجعلك تحيلين كل حزن يصادفك إلى طاقة ودافع للبقاء واقفة أطول فترة ممكنة .

- شكراً لأنك بقيت معي ، لا أعرف ماذا كنت سأفعل لولا وجودك

- كنت ستنجحين بطريقة ما ، لا يجب أن تشكريني لأني حاولت القيام بواجبي الإنساني مقتدياً بكِ

- هل أنا قدوتك الآن إذن؟

تحول كل الحزن الذي كانت يكسو عينيك إلى ابتسامة حلوة ، وكأنك تنفضين حزنك بهزة كتف بسيطة ، مرحك يغلب دائماً ، تكونين كالأطفال أحياناً ، الذين قد يقهقهون ضاحكين ودموع بكائهم لم تجف بعد .

في داخلي لم أكن أخشى أن أعترف بحبك يا نبض ، ولم أكن أماطل قبل أن أعترف ، كل يوم كنت أقضيه في وجودك كان يحمل لي دليلاً قاطعاً أن حياتي قبلك لم تكن إلا مجموعة من الليالي والأيام الفارغة ، كل ما في الأمر أني كنت أستمتع باكتشافك يوماً بعد آخر ، أو ربما باكتشاف نفسي من خلالك ، إننا حين نحب لا نكتشف شخص الآخر وحسب ، بل نكتشف حجم قدرتنا ، حجم صبرنا ، وحجم قلوبنا أيضا .

كأن الحب يمثل اكتشاف أبواب جديدة بداخلنا نجد مفاتيحها مدفونة في روح أخرى ، وما أن نجده حتى نجد أنفسنا .

من خلالك تعلمت أن روحي أيضاً يمكن أن تكون محسوسة أكثر من جسمي ، إنني معك كنت أكتشف معالم

روحي ، أكتشف أن للقلب أيضاً حواسه الخمس ، أصبحت قادراً على أن أراكِ بقلبي ، ألمسك به ، أسمعك ، وأعرف رائحة حبك .

علمتني الكثير دون أن تقولي شيئاً ، أعدتِ تشكيلي ، كأن كل ما اعتدت عليه قبل أن أعرفك أصبح غريباً عني ، كأن حبك كان عادتي الوحيدة منذ الأزل ، عندما أكون معك أشعر كأنكِ تنادين الطفل الصغير الذي بداخلي ، تخرجينه من مخبئه ، يشاكسك أحياناً ، ويختلس منك الحنان أحياناً أخرى ، أتذكر كلماتك حين كنتِ تقولين لي :

- التعامل مع الحب يتطلب منك أولاً أن تتخلى عن التفكير في الخطوة القادمة ، أن تدرك أن المشاعر لا يمكن لها أبداً أن تقاس بالسنتيمتر ، تعطي دون أن تحسب ، أن تتوقف عن محاولة الفهم وتبدأ محاولة الشعور ، لأنك لن تفهم الآخر إلا حين تشعر به .

كنت تتكلمين بعفوية رغم ما كان يبدو عليك من استغراق في التفكير ، تميلين إلى الجنون فيما يتعلق بالمشاعر ، ولكن كان يغلب على هيئتك وتصرفاتك الكثير من العقلانية ، وهذا ما كان يجعلني أتساءل أحياناً عما إذا كنتِ تخبئين جنونك أو تناقضين كلماتك ، سألتك مرة :

- هل قطع الحب طريقك يا نبض من قبل؟

- لمَ تسأل؟

- متى ستتوقفين عن عادة الإجابة عن السؤال بسؤال؟

أطلتِ النظر إليّ قبل أن تقولي شيئاً ، نظرتك الطويلة تلك لم تكن مبعث سرور لي ، لا أعرف كم انزعجت حين فكرت في احتمال أن في قلبك شخصًا آخر ، أو بقايا حب قديم ، أو حتى حلماً متعلقاً بسواي ، يقال أن الرجل يرغب أن يكون الحب الأول في حياة المرأة ، وترغب المرأة أن تكون الحب الأخير في حياته ، لكن بالنسبة لي لم يكن الأمر متعلقاً بالترتيب ، لم أكن أحتمل فكرة أن يلمس قلبك أي شيء يخلو مني لا قبلي ولا بعدي ، لقد أردت أن أعرّفك على الحب كما عرّفتني عليه حين دخلتِ قلبي ، شعرت أنكِ أجمل من أن تجرحك ذكرى ، أو يحزنك فقد ، أخرجني صوتك الهادئ من صخب أفكاري قائلاً :

-إذا كنت تسأل عن كوني عشت علاقة حب فجوابي هو كلا ، أما إن كنت تسأل عن كوني تعرفت على الحب فنعم ، أستطيع أن أعرف الحب من أدق تفاصيل الحياة ، يكفي لحظة تأمل واحدة في هذا الكون لتكتشف أنه نسيج هائل من الحب ، العصافير في أحضان الشجر ، الغيم في قلب السماء ،

الأودية في صدور الجبال ، كل شيء هنا يعلمنا أن نحب ، الحياة لا ترسم لنا لوحة السعادة الخالصة ، ولكن عبقريتها تكمن في دفعنا لاستخلاص لحظات جميلة حتى من أقسى مواقفها .

- يبدو أن الحياة تفخر بتلميذة مثلك .

- لا ، هي تسخر من محاولاتي لفهمها ، تماماً كما تفعل أنت الآن .

لم أكن أسخر في الحقيقة منك ، بل من شعوري بالخفة بعد أن عرفت أن قلبك خالٍ من البشر ، وأجمل من ذلك أنه مسكون بالحياة ، والطبيعة والحب ، هل يمكن أن تكون الجنة في صدر امرأة؟ أجل ، كانت جنتي في صدرك .

- تعرفين أني أحب استفزازك أحياناً

قلت ذلك بما يشبه الاعتذار ، فأعدتِ إليّ سؤالي بعد ذلك وأنتِ تعبثين بكوب القهوة أمامك محاولة أن ترسمي صورة اللا مبالاة بما تقولين :

- وأنت؟ كم امرأة أحببت؟

- كم امرأة؟ ألا يجعلني هذا السؤال أبدو زير نساء؟

قلت ذلك وأنا أكابد ضحكة تحاول أن تنفلت مني رغماً ، نظرتِ إليّ :

- لا ، لا يجعلك زير نساء ، بل يجعلك ماجلان أو ابن بطوطة أو كولمبس ، مسألة اكتشاف يعني ، كل علاقة هي عملية اكتشاف مغلفة باسم الحب أو الزواج أو الصداقة ، كاكتشاف المدن والقارات ، بعضها يدفعك للبقاء والاكتفاء ، وبعضها يدفعك للرحيل والبحث عن المزيد .

- في عالم النساء يسمى هذا الكلام جريمة ، وقد تعاقبين عليها بالإعدام كأخف حكم .

- هذه هي الحقيقة ، وإن كانت تبدو مزعجة حين نقولها إلا أنها صادقة ، يندفع الأغلبية من الرجال إلى النساء والعكس أيضاً بدافع الاكتشاف أو البحث أو تمثيل الفكرة المكررة عن حكايات العشاق والنهايات السعيدة وحتى بدافع الملل وأحياناً خشية الوحدة ، غافلين عن أن الوحدة تكون أسوأ حين نشعر بها برفقة الآخرين ، كل شيء في البداية يبدو كما يجب ثم تبدأ مشاعرك بالكشف عن نفسها ، إما سلباً أو إيجاباً ، لكن الحكاية الأصدق هي من تختارنا لا نحن من نختارها .

- هل تظنين أن النساء والرجال يمارسون لعبة الحب على بعضهم البعض؟

- ليست لعبة الحب ، بل حب اللعبة . . أكثر النساء يحببن فكرة أن يملكن رجلاً ، ولعل الأمر ينطبق على الرجال

أيضـاً . . وهذا أمـر فطري وضـروري أيضـاً لاسـتـمـرار النوع البشري . . ما أردت أن أقوله أن المعرفة لا تضر طالما تستطيع أن تحافظ على نسبة جيدة من الصدق في علاقتك بالآخر ، إن كنت لا تحب فلا تجعله يظن أنك متيم به ، والعكس ، أنا ضد الكذب لا ضد المعرفة ، عدد الأشخاص الذين يرغب الإنسان في معرفتهم أمر متعلق بتركيبته الاجتماعية قبل كل شيء ، بعضنا يحب أن يجمع الكثير حوله ، وبعضنا يختارهم بعناية كما يختار ملابسه ، وبعضنا يكتفي بواحد ، وبعضنا يكتفي بنفسه ، يمكن للجميع أن يعرف بقدر ما يريد ، ولكن ادعاء المشاعر في حال عدمها أمر مرهق برأيي للطرفين ، ففي وقتٍ ما قد يجدك الحب ، وتعانق روحٌ أخرى روحك دون أن تضطر لاختلاق ذلك أو تمثيله ، فإن لم يحدث الأمر فلا تجبر قلبك ولا تأسر قلب الآخر .

- إذن فأنتِ تجدين الحب في الزواج ضرورة!

- بالنسبة لي شخصياً ، نعم ضرورة ، أنا مع الحكمة القائلة «لا تتزوج من يمكنك الزواج به ، بل تزوج من لا يمكنك الزواج إلا به» ، ولكن في الزواج بشكل عام ليس الحب ضرورة عند كثير من الناس بل أن البعض منهم يجده عائقاً أحيانا ، أسباب الزواج كثيرة وثمة من بينها ما هو أهم من الحب ، وقبل

هذا هو سنة حياتية للتعامل مع الغريزة البشرية ، إذ لا يمكن للإنسان أن يحمل ثقل الحياة وحده ، والناس متباينون في احتياجاتهم ومطالبهم من الزواج ، أنا لا أستطيع أن أتقبل فكرة أن أتشارك حياتي مع شخص لا أحبه ، وهو شأن خاص بي ، قد أنتهي بسببه عجوزاً وحيدة تتسلى بغزل جوارب الصوف لأحفاد الآخرين .

كنت أشعر أنها اللحظة المناسبة التي عليّ فيها أن أخبرك أني أريد أن أكون الكهل الذي يشتري لك خيوط الصوف ويجلس بجوارك يقرأ كتاباً وأنتِ تغزلين ، وبدأت أبحث عن صوتي قبل أن أتراجع عن قراري ، غير أنك نهضتِ إيذاناً بالانصراف وأنتِ تبتسمين بمكر قائلة :

- سأذهب الآن ، ولكني أنتظر إجابة السؤال لاحقاً يا كولمبس!

- سأحصيهم لكِ في الغد إذن أيتها العجوز الوحيدة .

يخطر لي اليوم يا نبض جلوسنا ذات يوم في الحديقة العامة ، كنت قد سألتك قبلها عن لونك المفضل فأخبرتني أنك تحبين الأخضر ، قلت لي أنه يحمل لكِ دائماً رائحة العشب التي تعشقينها ، حتى أنكِ اعترفت لي بمرح طفولي أن صديقتك الأولى كانت شجرة ، وأن حزنك الأول كان لحظة

أسقطت العاصفة تلك الشجرة ، قلت لي حينها : شعرتُ يومها أن الريح سرقت أسراري ونثرتها في كل مكان .

تمنيت لحظتها لو كان بوسعي أن ألون العالم كله من أجلك بالأخضر ، وأجعل كل طريق تسلكينه محفوفاً بالشجر ، وكمحاولة لتحقيق جزء من الأمنية أخذتك للحديقة العامة ، وطلبتُ منك أن تختاري صديقة لنا من بين الشجر ، وعقبتُ مازحاً : اختاري لنا صديقة موثوقة كي لا تنهزم أمام الرياح وتفضحنا .

- يبدو أنك تنوي إفشاء أسرارك

- أجل ، لدي سر خطير ، من الصعب أن أفشيه ، ومن الصعب كذلك أن أبقيه

- وضعك صعب حقاً ، تعال . . أظن أن هذه الشجرة ستساعدنا ، الشجر يسمع ولا يتكلم لذلك تستطيع أن تكون مرتاحاً .

أخذتني إلى شجرة تفاح كبيرة ، جلسنا على الأرض تحتها ، قلتِ لي حينها أن جلسة الاعتراف بدأت وأن عليّ ألا أبقي الأسرار في داخلي أكثر كي لا أتحول إلى شجرة ، لاحظت أنك تخليتِ عن بعض هدوئك المعتاد وكأن المكان بعث تلك الطفلة من مرقدها ، كنتِ تنظرين إليّ بتركيز وأنتِ تحثينني على البوح ، نظرتُ إليك وقلت :

- لقد عشقت امرأة .

لم تقولي شيئاً ، ولم تحد نظرتك عن وجهي ، كأنك تحاولين تقمص دور الشجرة هنا ، أن تسرقي مني أسراري بهذه الدوامة السوداء في عينيك ، كنت أحاول أن أجد تعبيراً في وجهك أستدل به على مقدار ما يمكن إفشاؤه من أسراري ، ولكني عرفت أني أضعف من الكلام وأجرأ من الصمت أيضاً في هذه اللحظة ، شجعني ثبات ملامحك أن اقترب من وجهك أكثر ، كنت أشعر أني أريد أن ألمس خدك براحتي ، ولكني قلت بدلاً من ذلك :

- أيتها الشجرة تسللت إلى قلبي امرأة كالنبض ، تسللت إلى أحلامي امرأة كالعطر ، تسللت إلى أيامي امرأة كالحياة . . تشبه كل شيء ولا يشبهها شيء ، سرقت نومي وأبدلته بطيفها ، سرقت صباحي وأبدلته بضحكتها ، سرقت هويتي وأبدلتها باسمها . . منذ رأيتها لم أعد أعيش إلا لأراها مجدداً ، وحين أتنفس أفعل ذلك بحثاً عن رائحتها ، جميلة كالربيع ، حيت تأتي يزهر الكون من حولي دفعة واحدة ، هادئة كالليل كلما رأيتها رغبت أن آوي إليها ، تعرف كيف تكون أنثى كاملة دون أن تشبه غيرها من النساء ، تعرف كيف تجعلني مجنوناً دون أن تدرك أنها تفعل ، أدمنت صوتها إلى درجة أني أشعر أن روحي تعطش

لسماعه قبل أذني ، قلبي ليس معتاداً على هذا المقدار من العشق أيتها الشجرة ، فاض كثيراً حتى بدأ كل جزء مني يعشقها أيضاً ، ولكن مشكلتي هي أني كلما جئت لأعترف وجدت الكلام أضعف من أن يحتمل كل هذا الوجد ، وحين فكرت أن أعترف بقبلة وجدت أني قد استغرق العمر بأكمله في قبلة واحدة ، وحين فكرت أن أعترف بعناق خشيت أن أحطم أضلعها لقوة ما أشعر به ، ولكن الصمت لم يعد ممكناً أيضاً .

كان وجهك يشتعل احمراراً وعيناك تشبهان غيمة تصارع الهطول ، عرفت أني دخلت إلى روحك وعقلك وقلبك في تلك اللحظة ، ليس على هيئة سر فقط ، كنتِ تتصارعين مع المشاعر التي تشبه كلماتي بداخلك وكأنك كنت تشعرين أني أقرأك ، أخفضتِ بصرك للحظة ثم رسمت ابتسامة رقيقة على شفتيك قائلة :

- أظن أن تحت كل شجرة تفاح سيتم اكتشاف نوع جديد من الجاذبية .

بادلتك الابتسام ولكني لم أستطع أن أحيد بنظري عن وجهك ، لاشيء يوازي متعة مراقبة وجه من تحب ، لا سيما إن كان هذا الوجه شفافاً إلى درجة تفضح كل ما يحاول إخفاءه ، لم ترفعي بصرك إليّ ، كأنك كنت تخشين أن تفتحي

نوافذك للعاصفة ، لا أعرف لماذا لم أحاول أن أقول لك كلمة صريحة كـ«أحبك» ربما لأني كنت أشعر أني لن أنصفك إن اختصرت وجودك بداخلي بكلمة واحدة قيلت لملايين النساء قبلك ، شعرت أني أعيشك لا أحبك فقط ، لم يكن الشوق وحده يدفعني كل يوم لرؤيتك ، بل الحاجة التي تشبه الجوع والعطش ، كنتِ بالنسبة لي ضرورة لا ترفاً ، كأني إن لم آخذ حصتي اليومية منك سأموت جوعاً وظمأً إليك ، لذلك أردت أن تشعري بما أشعر لا أن تسمعي كلمة مختصرة وعدة وعود مكررة ، أردت أن تصابي بعدوى قلبية مني ، أن أنقل إليك شعوري كما هو ، لا تختصره الكلمات ولا تفقده المبالغات صدقه ، في ذلك اليوم أحسست أني نجحت ، لمست روحك ، عانقتها بقوة ، خدرت قلبك ، قرأت ذلك من خلال عينيك ، تلك التي يزداد الأسود فيهما عتمة كلما التهب شعورك ، عرفت أنك تحبينني ، على الأقل كما أحبك .

في اليوم التالي رأيتك في مقهى الجامعة ، كنتِ مستغرقة في الكتاب الذي أمامك دون أن يجذب انتباهك أياً من الأصوات المختلطة التي يعج بها المكان .

طلبت فنجاني قهوة وجئت لأقاطع انسجامك متعمداً ، كان يسرني أن أسرقك من أي شيء يستحوذ عليك أكثر من

وجودي ، حين رفعتِ عينيك إليّ كان فيهما شيئاً مختلفاً عن المعتاد ، لا أعرف إن كان لنصف السر الذي بحت به بالأمس للشجرة يد في ذلك ، ولكن مهما كان فقد أعجبني ، تنظرين بشكل فاتن حين تنتظرين شيئاً ، يضفي الشغف على سواد عينيك لمعة بديعة ، تجعلها قطعة من الليل المزين بالنجوم ، حتى صوتك وابتسامتك هذا الصباح كان فيهما شيء من الاختلاف ، أحطتِ فنجان القهوة براحتيك كما هي عادتك وبدأتِ تختلقين الأحاديث متجنبة الوقوع في الحديث الذي يثرثر به قلبك ، كنتُ مكتفياً بالنظر إليك فقط ، كما لو كنت أتأمل لوحة متقنة أو منحوتة لا خطأ فيها ، وكنت أعرف أن نظراتي تربكك ، فأستمتع بذلك ، قاطعتك قائلاً :

- جلبتُ لكِ هدية

مددتُ يدي بكتابٍ كتب على غلافه «ديوان ابن زيدون» ، لم يكن الكتاب في الحقيقة سوى ظرف لرسالة كنت قد أمضيتُ ليلي بأكمله أحاول كتابتها ، عشرات الأوراق راحت ضحية محاولاتي تلك ، تصبح الكتابة عملاً شاقاً حين نحاول أن نضمنها شعوراً حقيقياً ، لاسيما شعوراً يشبه الطوفان ، لكن كان يجب أن أمضي قدماً في الطريق الذي مهدت له بالأمس ، كنت أشعر أني إن لم أفعلها اليوم فلن أفعلها أبداً ،

كنتِ تنظرين إلى الكتاب ببهجة ، تماماً كما تنظر امرأة لمحل مجوهرات يعجبها كل ما فيه ، قلتِ لي وأنت تمسحين بأطراف أصابعك على اسم الكتاب :

-هذا شاعري المفضل

-أعرف

-هل أخبرتك بهذا من قبل؟

-لا . . ولكنني رأيت الشبه بين رقة شعره ورقة قلبك .

نظرت إليّ مبتسمة :

-أحب طريقتك في التفكير ، وأحب طريقتك في التعبير عن أفكارك ، تجعل للأشياء العادية معانٍ مدهشة .

-أليس هذا دور الشعراء؟

-أنت شاعر من طراز خاص

ثم احتضنت الكتاب بين يديك ونهضتِ ، نهضتُ بدوري وقتها لأرافقك لقاعتك الدراسية ، قبل دخولك قلتُ لكِ بنبرة ذات مغزى :

-تتمة السر الذي بحت به للشجرة البارحة في قلب الكتاب ، أرجو أن تودعيه قلبك .

لو كان هناك من أداة تعذيب للروح فهي الانتظار ، ولو كان لها من جلاد فهو الوقت ، كنتُ أشعر وكأن ساعات العالم

بثوانيها تدق في رأسي ببطء وعناد .

في مكان آخر كانت ورقة محظوظة تنتظر أن تحظى بأكثر اثنين أحبهما فيك ، يديك وعينيك ، وتتسرب كلماتها لأكثر اثنين أرغب أن أكون كل سكانهما ، قلبك وعقلك ، كنتُ أحاول أن أتخيلك لأخرج من حالة الشلل النفسي التي يجعلني انتظارك أعيشها ، أتخيل تعابير وجهك مع كل كلمة مكتوبة ، أتخيلك تنعتينني بالجبان لأني لم أجرؤ على البوح بذلك في وجهك ، ولكن أردت التعبير لكِ عما أكنه لكِ بأفضل طريقة أعرفها ، وهي الكتابة ، رغم أني بدوت كطفل يخطو أولى خطواته وأنا أكتب لكِ ، لم يكن الأمر سهلاً يا نبض ، كأن كل المصطلحات التي أعرفها تخلت عني وأصبحت غريباً فجأة في مدن الحروف ، ولكني كتبت ، قلتُ لكِ أحبك بشكل لا يقبل المواربة ، كل كلمة كتبتها كنت قد احترقت بشعورها طويلاً ، لم تكن مجرد رسالة ، بل قطعة قلب مكتوبة ، تخيلتك تقرئين :

«إلى نبض . .

الحقيقة المختبئة خلف كل قصائد الشعراء الكاذبة

الوجه الصادق للحياة

الاختلاف الوحيد في هذا العالم المتشابه حد الملل

البقعة الأكثر دهشة وأماناً على هذا الكوكب المتداعي

إليكِ من عاشق كان يحترف الكلام فأخرسته بنظرة واحدة من تيك العينين المخلوقة خصيصاً لسلبي كل قدراتي

إليكِ أيتها السر العصي على الكتمان :

لا أعرف شيئاً آخر غيرك وأنا أقلّب نواقصي التي تبدو الآن واضحة بطريقة فاضحة ، وأتردد في الاقتراب من الفراغات كي لا أقع أكثر وتتضح هشاشتي . .

ثمة انسياب مدهش لكِ في داخلي ، انسياب منبعه ومصبه عينيك ، لا أعرف سحراً أقوى منهما ، وتلك ليست مسألة اعتيادية متداولة . . بل حقيقة .

إذا اتفق أجدادنا العشاق منذ الأزل على سحر العيون فذلك أمر آخر . . لم يحدث لقلبي بالوراثة .

لقد فكرت أول ما رأيتهما في الرياح التي تسلب إرادة السفن ، وقد رضخت كل أشرعتي حينها طوعاً . . وصارت كل أمنياتي أن تقودني رياحك إليك .

لا أملك الجودة الكاملة التي تساعدني على أن ألبس مشاعري تجاهك ثياب الكلمات ، دائماً ستكون أقصر ، ودائماً سيظل جزء منها عارياً لا يستره سوى قربك .

الآن أفكر بك . .

ليس فقط لكوني وحيدٌ بدونك ، ولا لكوني مشتاق إليك كثيراً ، ولا لأنك مطلوبة إلى رئتيّ قبل قلبي . . بل لأن وجه الحياة لم يعد يحمل سوى ملامحك .

أحياناً أظن أن الشوق إليك مرضٌ عضال لا يرجى برؤه ، وأحياناً أراه الدليل الوحيد على عافية روحي .

كل هذا يقول لكِ أني أحبك كما هو ظاهر لك ، ولكنه يقول شيئاً آخر أيضاً : أنتِ لستِ أبداً حدثاً عارضاً ، ولا حمى مؤقتة . . بل أنتِ بأهمية الدم في الشرايين ، لا يمكن أن تنتهي إلا بنهاية الحياة ولا تتوقف إلا حين يصدر قرار الموت .

أريدك أن تعلمي أني انتظرت طويلاً هذه اللحظة ، أن أقول لكِ : أريدك في حياتي كما أنتِ في قلبي ، بل أريدك حياتي كما أنتِ قلبي ، لأنك لا تجيدين البقاء فيهما بل احتلالهما .

احتليني ، أريد أن يشيع النبض في كلي

أريد أن تمسني الحياة من خلالك أنتِ وحدك

خذي هذا المجنون بين أضلعي الذي يهذي باستمرار بكِ ، خذيه واصغي السمع إليه ، لن تسمعي سوى نبضك ، كما تحمل القوقعة صوت البحر ، قلبي يحمل صوتك»

كنتِ بانتظاري كما كنتُ بانتظارك ، حين جئت إليّ لم تقولي شيئاً ، بل طلبتِ إلى أن أرافقك بعد الانصراف إلى

مكان ما ، لم يكن هناك احتمال ألا أفعل ، قلتُ لكِ دون تفكير أني مستعدٌ لمرافقتك إلى آخر الدنيا إن شئت ، وكان ذلك أكثر من مجرد جواب مناسب ، رفقتك هي كل ما أريد ، أما الأماكن فهي لا تعنيني طالما أسكن قلبك ، خرجنا معاً كما هي عادتنا ، كنا نسلك طريق العودة باتجاه قريتنا ، لم أسألك عن وجهتك ، كان الصمت الآمن بقربك لحظتئذٍ أجلُّ من أن يُقطع ، اتجهنا إلى مزارع القمح ، كان المكان ساكناً جداً في ذلك الوقت ، بمحاذاة المزارع كان ثمة بقايا طاحونة قديمة ، مكانٌ يشبه الخرائب إلا قليلاً ، دخلنا إلى هناك ، اخترتِ لنا مكاناً ثم طلبتِ مني الجلوس ، بعد أن جلسنا قلتِ لي وأنتِ تعبثين بكم قميصك كما هي عادتك حين تحاولين شرح أمر تظنين أنه قد يبدو غريباً :

- منذ طفولتي كنتُ أقصد هذا المكان حين يصبح قلبي ممتلئاً ، آتي هنا لأفرغ ما فيه ، أصرخ إن حزنت أو أبكي ، أختبئ إن شعرت بالخوف ، أرقص إن استبد بي الفرح ، أخبئ أغلى مشاعري في هذا المكان ، ودائماً كنت آتي إليه وحدي ، اكتشفت هذا المكان حين كان أبي يأخذني معه إلى مزرعة القمح ، بينما كان يهتم بعمله كنت أتسلل إلى مخبأي السري ، حتى بعد أن كبرت لم أكبر على حاجتي للتسلل

إليه ، هذه هي المرة الأولى التي لا أكون فيه وحـدي ، هل تعلم لماذا؟

سـألتكِ : لماذا؟ وأنا أتأمل وجهك الذي يحـاول أن يتـخلى عن جـديتـه دون أن يفلح ، كنت أشـعـر أنكِ تحـاولين إطلاعي على كل الأشياء الحميمة التي تخصك ، هكذا نحن حين نجد أنفسنا في إنسانٍ آخر ، نأخذه أولاً إلى أكثر الأماكن وحدة في أعماقنا «أسرارنا» ، وكأننا نحاول بهذا المعنى أن نمزجه بنا ، أن نعطيه تأشيرة دخول من أكثر الأبواب التي كانت محرمة على الآخـرين كي نخـرجـه من فكرة كـونه «من الآخـرين» ، نتلذذ بالمشاركة حتى وإن كانت الأشياء التي نشاركها خارج نطاق اهتماماتنا ، غير أنها تكتسب أهمية بالغة حين تخص إنساناً يمثل كل شيء بالنسبة لنا . أجبتني بخجل وجرأة وأنت تمزجين متضادين مجدداً بتلك الطريقة التي لا تخص سواك :

- لأن قلبي ممتلئ بك .

- أتريدين تفريغه؟

- في هذه الحالة لا يكون التـفـريغ تخلصـاً ، بل زيادة في الامتلاء ، هل تعرف ظمآناً شرب من البحر فارتوى؟

- كلما يشرب يزداد عطشاً ، تماماً كما تفعلين بي ، منذ وقت طويل وأنا غريق وظمآن ، كما حالك معي دائماً تجمعين

كل المتناقضات بي دون أن تلغي إحداهما الأخرى .

- هل يسعدك لو أخبرتك أنك لست وحدك في هذا الطوفان ، وأن كلانا يشرب من ذات الكأس؟

- أخبريني ، أسعديني أكثر .

- لم تكتب إليّ ما في قلبك ، بل قرأت عليّ ما في قلبي .

- هل تقولين أنك تحبينني أيضاً يا نبض؟

- أجل

- أجل ماذا؟

- أحبك

كل شيء استطعت تخيله غير أني لم أستطع أبداً تخيل اللحظة التي أتناول فيها جرعة حب بصوتك ، كنت أعرف أني بداخلك ، كنت أشعر بذلك الدفء ، ولكن سماع ذلك منك لا يشبه المعرفة المتنكرة في ثياب التخمين أبداً . كان قلبي في تلك اللحظة يشبه طائراً أفلت من بين يدي آسره للتو ، شعرت أن صدري باتساع السماء ، وقلبي يحلق في أرجائها عالياً ، لم أعرف من أين أبدأ الكلام ، أردت أن أعانقك فقط لولا أني خشيت أن أرعبك باندفاعي ، كنت أدرك جيداً أن الأمر مازال حديثاً عليك ، وأنك تناضلين لتحافظي على هدوئك ، أعرف

ارتباكك من رجفة شفتك السفلى لذلك تحاولين العض عليها باستمرار ، حاولت أن أحتفظ بالجو المريح الذي لطالما كان بيننا ، سألتكِ دون أن أفكر في معنًى لسؤالي :

- منذ متى؟

- لا أعرف ، لم أدرك ذلك إلا متأخراً

- أي أنني لستُ وسيماً بما يكفي لتقعي في حبي من النظرة الأولى!

قلتُ ذلك محاولاً أن أخلق ابتسامة على وجهك ، ابتسامتك كانت تنعشني ، تخلق بي مساحة جديدة حين تتخم المشاعر أعماقي ، وكنت أحب أن أتأمل عينيك لحظة تبتسمين ، تصبح أجمل وهي تحتضن البهجة .

- الحب من أول نظرة مثل فقاعة الصابون ، مدهش وآخاذ ، ويعكس الكثير من الألوان ، غير أنه قد يتلاشى مع أول عارض ، الحب الأقوى يحدث بعد تمعن ، تخيل أي أثرٍ سحيق يتركه الحب القادم من العمق! ذلك الذي يتجول بنا في حرية دون أن ندرك ، ليستعمرنا بالكامل ثم يفاجئنا بإعلان اسمه ، هكذا أحببتك دون أنتبه ، دون أن أتوخى الحذر ، ودون أن أحصرك في مكان واحد بقلبي ، عندما أدركت كم أحبك كان أوان الوقاية قد فات ولم يعد ثمة علاج لي إلا أنت .

- وأنا أحببتكِ على مهل ، كان قلبي ينضج على نار عشقك رويداً رويداً ، حتى تمكنتِ من كل جزء منه ، حين التقيتك ، شعرت كأنني بحثت عنك طويلاً ، طويلاً بما يكفي ليكون عمراً بأكمله ، لذلك كان لقائي بك يشبه الموت ، لا يمكن العودة قبله ولا تحويله إلى ذكرى .

- كان الحب عندي مقترناً بالخوف . . منذ أدركت قلبي وكل الذين أحبهم لا يمنحوني سوى الخوف والفقد ، ترددت كثيراً في محاولة تفسيرك بداخلي ، خشيت أن أعترف بك خشية أن أفقدك ، أردتك أن تظل بداخلي دون مسمى ، دون هوية ، كنت أخشى أن أسميك حباً فتتحول إلى عذاب ، كان لدي شبه يقين أنك تحبني ، ولكن كانت مخاوفي تبتلع يقيني في نهاية الأمر ، حتى غلبني حبك ، كنت أحلم بك قبل أن أنام ، وأثناء نومي ، وحين أستيقظ ، بنيت بك مدناً شتى من الأحلام ، لكني خشيت كل مرة أن تكون مجرد سراب يصوره لي عطشي وهذه الصحراء الكبيرة التي تسمى الحياة .

- لا يكون حب دون مجازفة . . هذه كلماتك .

- هذا ما أؤمن به حقاً ، أنا لا أخاف منك ، بل أخاف من فقدك .

- كلانا كذلك ، ولولا خوفي من فقدك ما تقدمت

تجاهك ، أحياناً تكون الشجاعة هي جرعة كبيرة من الخوف .

أمسكت يدك ، انتظرت طويلاً لأحظى بملمس راحتك بين كفيّ ، كنتِ تنظرين إليّ نظرتك الحانية تلك ، ووجهك يأخذ لون الشمس التي أخذت تغوص في الأفق مسدلة الستار على أكثر أيام عمري بهجة ، لم نشعر بالوقت ، تأخرنا كثيراً على العودة ولكن لم يكن القلق قادراً على أن يسرق طمأنينة قلوبنا هذا اليوم ، كنا قد اكتملنا ، لم يعد ثمة فجوة يمكن للحياة أن ترسل لنا من خلالها ما يزعجنا ، على الأقل في هذه اللحظة ، وأنا أصطحبك عائدين إلى قريتنا ، يدي في يدك ، يدك في يدي ، قلبك في صدري ، وقلبي في صدرك ، كلانا يحمل عن صاحبه ما يثقله ، كلانا مستعد للمضي برفقة الآخر حتى لأكثر الطرق وعورة ، كنت أشعر في تلك اللحظة أنني قادر على فعل كل شيء دون مبالغة ، حين وصلنا حيث تقيمين ابتعدت قليلاً عن الأنظار بينما شيعتك بنظري حتى تواريتِ خلف باب الدار ، وهمستُ من خلفك : بالأمس صرت قلبي ، واليوم صرت حياتي ، وغداً تصيرين بيتي ووطني .

لم أعد أغفو إلا على صوتك الناعم كالحرير ، ولا يخطر لي أي شيء حال الاستيقاظ سوى البحث عنه ، أدمنته كما أدمنت كل تفاصيلك .

-هل رأيتني في المنام؟

هذا أول سؤال أسألكِ إياه حين أهاتفك صباحاً ، ودائماً ما يكون جوابك :

- في المنام وفي اليقظة لا أرى سواك

- تعالي إذن لأراكِ ، أنتظرك لنذهب سوياً إلى الجامعة

- بمجيئك المستمر إلى هنا ستجعلني على لسان ثرثارات القرية أيها المجنون

-هذا يعني أني سأجعل ألسنتهن تتذوق أمراً في غاية الحلاوة

تقفين أمام النافذة في هذه اللحظة وتنظرين وعلى وجهك تلك الابتسامة التي تشبه قولك لي حين تنهزمين أمام أجوبتي العابثة : ماذا سأفعل بك أنا؟

فأجيبك بنشوة المنتصر : أحبيني أكثر .

- لو كان يمكن للمجنون أن يجن أكثر .

على الطريق كنا نحكي لبعضنا أحداث يومياتنا التي لم نتقاسمها معاً ، أحب أن أحكي لكِ أبسط الأمور التي تحدث معي ، وأحب أن أعرف كل تفاصيلك ، نتقاسم قطعة الكعك ونشرب من كوب شاي واحد ، تمثلين دور غجرية وتمسكين كفي متظاهرة بقراءة الطالع :

-يا ولدي أنت محكوم بالسواد لآخر عمرك ، الليل هو قدرك ، يحيط بكِ من ثلاث جهات ، أما الجهة الرابعة فيحرسها القمر .

تستغرقين في الضحك فأضم يديك اللتين تمسكان كفي بين يدي وأكمل معك الحديث على نفس المنوال الذي بدأته

- هل تقولين أني سأكون سجين عينيها أيتها الغجرية طول عمري ، هل قرأتِ في طالعي أن وجهها سيكون حارساً لي؟

- ألا تخشى يا ولدي السجن والسجان؟

- لا أخشى العشق يا غجريتي ، أنا سجينك الأبدي وأطالب بالمؤبد لأن حريتي منك أقسى من الحكم بالإعدام .

- لا يطلق سراح الروح إلا بالموت . . يا روح .

كلما التقينا أقطف لكِ من الحديقة وردة ، فتقولين لي : لا تقطف لي وردة بل ازرعها ، أحب أن تحيا الأشياء بحبك لا أن تموت ، وزرعت لكِ شجرة ورد في طريق عودتنا ، كلما التقينا في ذلك المكان سقيناها ، وكأنها ترتوي معنا حين نرتوي ، كنتِ حريصة جداً على ألا تتركيها تعطش أو يبدو عليها شيء من الذبول ، وكنتُ أحب فيك ككل ما أحب اهتمامك بحياة كل ما يحيط بكِ ، تبررين ذلك بقولك أن فكرة كون الحياة مؤقتة لا تمنحنا مشروعية قتل ما فيها قبل أوان نهايته ، لكل

شيء أوانه ولا حق لنا أن نقرر أجل شيء لمجرد أننا نملك القوة لذلك ، لنستخدم قدرتنا للعطاء لا للأخذ وحسب .

عام كاملٌ منذ عرفتك لم يمر يوم واحد فيه دون أن تدهشيني ، تتركين بي نفس الأثر الذي يتركه المطر بالأرض ، تمدينني بكل الأسباب لأحبك أكثر ، وأعيش بكِ أكثر .

مازلت أذكر أول رسالة منكِ يا نبض ، فلكثرة ما قرأتها حفظت حتى منحنيات الحروف التي خطتها يدك ، مزيج من رائحة عطرك وحبرك ومشاعرك شيء لا يمكن أن يسمى مجرد رسالة ، يومها كنا قد تشاجرنا ، فقد استسلمت لغيرتي وأنا أراك تردين ببراءة على سؤال أحدهم ، لم ترق لي نظرته إليك أو أني لا أحتمل أن ينظر إليك رجل آخر مهما كان خلف نظرته ، رغبت حينها أن أجعل من قلبي جذوة لإحراق العالم بأسره ، أعرف أنني كنت قاسياً لحظة الغضب تلك ، ولكننا نستمد قسوتنا أحياناً من قسوة ما يأكلنا من الداخل ، حدثتك بغضب ، ابتعدت عنك لا بدافع الهجر ، ولكني خشيتِ عليك مني لحظة ذاك ، كتبتِ لي حينها أول رسائلك ، كانت الحروف والكلمات أشبه بإسفنجة عملاقة تمتص طوفان غضبي كله ، حديثك الرقيق الذي يشبهك جعلني لا أرغب بشيء كما أرغب أن أضمك وأخبئك في صدري بعيداً عن كل ما يمكن

أن يخلق بيننا أي مسافة ، في ذلك الصباح جاءت رسالتك كالتالي :

«صباح الخير . .

هذه ليست تحية بل نداء

فالصباح أنت ، والخير أنت ، وحيث كنت يكون كل ما أحتاج

أيقظني العطش لذلك جئت أبحث عنك ، ولما لم تكن متاحاً ، جئت للمكان الوحيد الذي لا تغيب عنه أبداً . . قلبي

صباحي . .

كيف هو النور الساكن في عينيك؟ أمازال يغمر الأرض بمجرد أن تفتحها؟

أشتاق كثيراً للنهار والدفء فيك

أشتاق إلى حبات البن في أحداقك

إلى فنجان قهوتي الذي حدوده أجفانك

إلى قراءة أسرار حياتي في قعر نظراتك

إلى تعديل مزاجي بالغرق فيهما

أشتاق إليك . .

إلى حديثك المسائي الذي يلملم في قلبي أطراف الشمس الذاهبة إلى مرقدها

إلى أحاديث الليل ترتب لي فراشي/ مشاعري

تصبح لي دثاراً

تصبح لي سكناً

تحوّل كلماتك إلى ذراعين من دفء تضم بي شعث المسافة

أشتاق أن أخبرك . .

يوم واحد من غيابك كألف سنة مما يعدون ، كبر قلبي حنيناً ، وفي وجنتي أزهر الورد . . ويداك مازالتا غائبتان .

أن أشكو إليك ثقل الوقت لتدفعه بحضورك عني .

أن أتساقط بين وجودك كما أشتهي وتلملمني كما تتقن .

أن أخبرك : طالت جدائلي كثيراً كثيراً ولا مشط له صبر يديك .

أن أحكي لك غربة الوجوه في غياب وجهك

وأعترف : هذا الحب أكبر من حجمي

وأطلب : شاركني في حمله

أن يطرق أذان الفجر سمعي وأنا لست وحيدة منك ، وتتفتح الزهرة البنفسجية في السماء ونحن ننظر من ذات النافذة .

أن تكون متأكداً أنني إن لم أكن لك فلن أكون إلا للتراب .»

تذكرت قول العباس بن الأحنف حين انتهيت من القراءة «إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا . . . فأين حلاوات الرسائل والكتب؟»

ولا يمكن لشيء صادر منكِ إلا أن يكون حلواً ، تعرفين كل أبواب قلبي يا نبض ، وتدخلينها باباً باباً لغاية في نفسك!

أحب فيكِ كل شيء ، وأكثر ما أحب شعوركِ المجنون حين يفيض ، يصبح الغرق فيه أجمل متع الحياة .

حين أغار تتعمدين اللطف لأنك تدركين بأي سلاح تقاتلين ، ودائماً ما أسقط في معاركي معكِ بالضربة القاضية ، قتيلك أنا الذي يعيش فيكِ ويرغب أن يموت بكِ أكثر .

حين تغارين أحب أن أشاكسك وليس ذنبي إن كان غضبك المكبوت يجعلك حلوة أكثر ، قلت لك دائماً أنك رقيقة إلى الدرجة التي تجعلك تفشلين في التعبير عن غضبك ، ولكني أعشق كل حالاتك .

ذات يوم قلتِ لي : أغار عليك إلى الحد الذي لا يجعلني أبوح بك حتى لأقرب صديقاتي ، لأنني لا أحتمل أن تكون في صدر امرأة أخرى ولو على هيئة سر .

ذلك الاعتراف اللذيذ منك لم يرضِ قلب العاشق بي وحسب بل داعب.غرور الرجل فيّ أيضاً ، فإذا كانت الغيرة

ترمومتر الحب ، فهي كذلك وحدة قياس الاهتمام ، حين يتملكنا الحب تجاه الآخر يصبح القلب كالمجهر يرى كل تفاصيل الحبيب بدقة متناهية ، تبدو له كل تصرفاته وحركاته وسكناته ذات دلالة ومغزى ، الحب يا نبض سيد التناقضات . . فهو يجعل منا تارة شخصاً أنانياً لا يحتمل أن يتشارك حبيبه مع أي كائن آخر ، وبنفس اللحظة يحولنا إلى شخصٍ مستعد لبذل روحه له دون أن يرف له جفن . . العاشق يحمل صبر أيوب في قلبه لأجل من يحب ، ولكنه يحمل حزن يعقوب أيضاً في حال فقده . . يصبر لأجله ولكنه لا يصبر عنه ، يشتعل بالحب كاللهب ولكنه لا يقبل أن يكون لحبيبه إلا جنة ، يجعلنا الحب أكثر الناس شجاعة وإقداماً حين نخطو تجاه أحبتنا ، وأكثر الناس خوفاً وجزعاً حين يتبادر إلى أذهاننا هاجس الفقد ، لذلك كان الحب أكثر الأشياء العصية على الفهم ، ولذلك يبدو لنا نقيضاً للعقل في بعض الأوقات ومجانباً للصواب . . لأنه يجردنا من عاداتنا ، لا يسألنا عن رأينا فيما يضعه في قلوبنا من مشاعر ، لا يسمع مواعظنا ، لا يحفّل بقراراتنا ، غير أنكِ لا تعيشين في قلبي وحسب ، لقد سكنتِ عقلي طويلاً أيضاً حتى أنكِ أكثر أفكاري جمالاً وسحراً ، كما ينبض قلبي بكِ فإن عقلي يفكر بك كذلك ، وإن كان ثمة من عقد صلحاً بين الاثنين فهو أنتِ

دون شك . . إن كل مـا فيّ يا نبض يجمع على حبك . . إنني أخطّئ قوانين الكون بأكمله وأعتبرك صوابي الوحيد ، أعرفك عن ظهر قلب . . كل حركة منك أحمل معناها في قاموسي ، أعرف غيرتك التي تخفينها بحرص تحت قناع من الهدوء ، ألمحها في نبرتك حتى وأنتِ تجتهدين في جعل الأمر عادياً ، وأحب أن أراقبك وأنتِ تعضين شفتك السفلى كي تخفي انفعالاتك ، أو تعيدين خصلة من شعرك إلى مكانها عشرات المرات في الدقيقة الواحدة كي لا يظهر لي كم يشتعل قلبك ، ولكنك لا تعرفين يا نبض أن العين التي تبدو أنها ترى الأخريات لا ترى في الحقيقة إلا وجهك لأن الرؤية التي تراها العين لا تعني شيئاً أمام تلك التي يراها القلب ، وأنتِ وحدك من يبصر هذا القلب ، اسمك وحده يختصر كل نساء الأرض لي ، وكما تعرفين أنتِ أكثر من سواك : قلب العاشق لا يقبل القسمة على أكثر من واحد ، قلتِ لي : أخشى أن تظهر غيرتي فتجعلني قبيحة في نظرك ، لأن الغيرة حين تغلب الإنسان تدفعه للتصرف بحمق ، أو بسوء ، أخشى أن أكسر فيك شيئاً دون قصد لأن الدخان المتصاعد من قلبي حينها قد يعميني عن رؤية التفاصيل ، ويحجب عني الفهم . .ولكن كيف يمكن لشخص علقت النار بطرف قلبه أن يتصرف؟

فأجبتك حينها وعيناي تراقب وجهك الجميل الذي تأكله الحيرة : لا يمكن الدخول إلى مدن العشق إلا بتأشيرة الثقة ، إنها معادلة بسيطة إما أن نثق ونستمر ، أو لا نثق ونتوقف .

دافعتِ عن فكرتك بإصرار : ولكن ليس ثمة تناقض بين الغيرة والثقة ، ليس ظناً سيئاً بك ، بل شعور مزعج بشيء حولك ، أن أغار عليك لا يعني أني أشك بك ، بل يعني أني أعاني من بعض الأنانية فيما يتعلق بك .

تعرفين أنك تصبحين حلوة أكثر حين تستغرقين في نقاشٍ ما؟

كأنك غير منتبهة لهذا القدر من الجاذبية الذي تمارسينه ضدي أيتها الأنانية الصغيرة ، كوني أنانية كما تحبين ، وحين تشتعل نارِ غيرتك لا مانع من أن نتدفأ بها معاً .

كلما رأيتكِ سألت نفسي : هل هناك أجمل من كونك حبيبتي؟

كنت مستغرقاً في حبك إلى الدرجة التي لم أكن معها قادراً على السماح لأي شيء أن يقاطعني أو يلفت انتباهي عنك ، حتى جاء ذلك اليوم الذي قررت الحرب فيها أن تذيقني طعم فراقك ، لم يكن بوسعي أن أتفادى وباء الموت

الذي انتشر في الأرض انتشار النار في الهشيم ، قرأت في وجهك لحظة أخبرتك وجع من ينتزع منه قلبه وهو بكامل وعيه ، كنتِ تحاولين أن تخففي عني أو عن نفسك من خلال محاولتك التهوين علينا ، غير أن دموعك هذه المرة فضحتك ، صوتك الذي كان أضعف من الصمود بتلك الغصة تلاشى هو الآخر ، لم يكن لدي الكثير لأقوله لامرأة يذهب حبيبها إلى الموت ، ماذا يمكن أن يقال في مثل هذا الموقف؟

اختصرت المسافة الضئيلة بيننا واحتضنتك ، أردت أن أحمل رائحة دموعك على ثيابي قبل أن أذهب ، أن آخذ من أثرك قدر ما أستطيع ، وأنا موقن أني إن لم أمت بالرصاصة متُّ من حسرة الاشتياق إليكِ ، وجهك كان يقول لي : لا تذهب ، وصوتك كانت يقول لي : عدني أن تعود .

فأجيبك : عديني أن تنتظريني .

فتقولين بثقة : لن يمنعني من ذلك إلا الموت .

أصر عليك : عديني ألا يمنعك من ذلك حتى الموت!

تغتصبين حينها ابتسامة ويداك تحتضن وجهي : سأقاوم حتى عزرائيل لأجلك .

وقبلتك ، قبلة ضمنتها كل العشق الذي يحييني ، وكل الشوق الذي ينتظرني ، وكل الحزن الذي يعتصر فؤادي .

لم أكن أودعك ، كنت أودع كلي عندك ، لأني لا أملك بدونك من نفسي شيئاً .

أتأملك ، أحاول أن أملأ بصورتك عيناي ، أن أدخر منها في ذاكرتي ما أستعين به على أيام الغياب ، أضمك ثانية وثالثة ، أحاول أن أتخلى عن الكلام في هذه اللحظة ، حيث لا متسع له ولا قدرة لي ، تنظرين إليّ : لا تودعني ، نحن لن نفترق .

- لا أودعك ، أحاول فقط أن آخذ منك قدر ما أستطيع ، سأعود إليك وسيكون لنا وطناً ننجب فيه أطفالنا ، ستنجبين لي بنتاً تأخذ ملامحك ، وتأخذ قلبي ، لتكون جميلة مثلك وتحبك كما أحبك .

طبعتِ قبلة على خدي ، وقبلتين على عيني ، ثم سألتني بضعف :

- كيف لي أن أحتمل غيابك؟ كيف سأتصرف مع قلقي عليك؟

- سأكتب لكِ كلما استطعتُ ، وأنتِ ستكتبين لي ، سأفكر بك كل ثانية ، وأنتِ ستفعلين ، سأحلم بكِ كل لحظة ، وستحلمين ، سنلتقي كل يوم في أفكارنا وأحلامنا ورسائلنا ، سنكسب هذه الحرب وسنقتل الفراق ، لن ننهزم لأي منهما يا نبض .

لأشهر طويلة لم يكن يجمع بيننا من الملموسات سوى الورق ، كنت أبحث عنك في رسائلك التي تنقذني من وحشة كل ما يحاصرني ، كنت وحيدا بدونك ، مزدحم بك ، بين كل رسالةِ ورسالة كنت أعيش على الانتظار ، كنت تبعثين الحياة في الكلمات كما هو حالك مع كل الأشياء . .

إلى نبض . .

وصلت إلى خندقي يا نبض

هذا أسبوعي الأول الذي أقضيه بعيداً عنك ، قريباً من الموت

مازلت إلى الآن أشم رائحتك في يديّ ، لم تهزمها رائحة البارود بعد ، مازلت ألمح اللون الآمن والساكن في عينيك رغم أن اللون السائد هنا هو لون الدماء ، مازلت لا أرتجف إلا من فقدان صوتك كلما حاولت أن أغفو ، وكلما أيقظني صوت الانفجارات .

بخير أنا إلا من فقدك ، بخير لأني مازلت أتمسك بفكرة عودتي القريبة إليك ، لأشم ضفائرك حتى تتطهر رئتي من كل هواء تنفسته بعدك .

أخبريني عنك ، اكتبي لي عنك يا نبض ، عينيك ، يديك ، صوتك ، شفتيك ، ضحكتك ، اكتبي لي ما يساعدني على لمسك ، رؤيتك ، ابعثي لي قليلاً منك ، كلماتك وحدها يمكن أن تكون مخرج طوارئ ينقذني من نار الحرب ونار الشوق على حدٍ سواء .

صورتك تنقذني كلما حاولت بحار الوحدة أن تغرقني ، أتمسك بها كما يتمسك غريق بقشة ، رغم أن وجهك وحده يكفي ليكون موكب سفن لا قشة .

في الوقت الراهن يبدو البعد محزناً ولكنه يخلق قرباً خاصاً يولد من هذا النوع من الابتعاد . . قرب لا يمكن تفسيره إلا بالصمت .

أحبك ، وأفكر بك ، وأحلم بك وإن كنتُ خلف أو أمام فوهة البندقية .

.

.

من نبض . .

حبيبي :

سأخبرك عني كما أردت ، سأكتب رغم أني لا أدري كيف تُكتب هذه العواطف التي تتملكني .

عيناي تقايض شوقي إليك كل ليلة بصورتك ، فترد إليها بضاعتها وتزيدها كيل التياع ، يداي وحيدتان دون أصابعك تملأ الفراغ بين أصابعها ، صوتي تحول إلى صدى لا يردد سوى اسمك ، شفتاي تحلم بك ، وضحكتي بحاجة إلى أن تخلقها بحضورك .

الأوقات متشابهة في غيابك ، لا ملامح لها ، تنتظر وجهك لتتقمص ملامحك ، لتصبح أوقاتاً صالحة للاستخدام ، بعدك يصبح أصعب مع مرور الوقت ، الفراغ الذي تركته صار بحجمي تماماً ، أقاوم كي لا يبتلعني ، أقاوم لأراك مجدداً ، لأجمع ما تساقط منك وأرمم ما تلف من روحك .

أتعلم في غيابك كيف أحبك أكثر ، كنت أظن أنه لم يعد ثمة المزيد ، ولكن الغياب فضح المساحات التي قلصها حجمك بي .

عُد إليّ . . لا تسمح لفوهات البنادق أن تسرقك مني

لا تمكن أي رصاصة من الدخول بيننا

لا تترك قلبك في مكان وتنساه ، لا تتركه فأنا فيه وهو وسيلتي الوحيدة للاطمئنان عليك

لا تهجر الأحلام ، فالأحلام أجنحتنا التي تجمعنا بعيداً عن تعقيدات هذه الأرض التي لا تشبع من الدماء .

لا تنم دون أن تخبرني أنك تحبني ، أشعر بك من قريب ، وأسمعك من بعيد .

أرفقت لك خصلة من شعري ، وصورتي ، وشيئاً من عطري ، وكل حبي .

المسني ، وانظر إليّ ، وشم رائحتي ، ولا تنسَ أبداً أني بانتظارك .

.

.

.

إلى نبض . .

منهك يا نبض ، وليس غير الكتابة سبيلي لأخذ قسطٍ من الراحة ، منهك الروح ، وغاية ما أتمنى يديك تنفض غبار الحرب عن وجهي ، تلم شعثي ، تعيد تشذيب أشجار الحزن التي نمت خلال شهر في داخلي ، كل شيء هنا يأخذني مني ، الوجوه المؤقتة ، التي نخرج معها ونعود بدونها ، وتلك التي نخرج إليها لنقدمها قرباناً لهذا الموت الذي يأبى أن يشبع .

أبحث الآن عن الرجل الذي كان يزعجه منظر قط ميت على الطريق ، أو يثير حزنه منظر طائر يقتنصه صياد ببندقيته ، أبحث عنه فلا أجده يانبض ، وإن وجدته فكيف أبرر له عشرات القتلى الذين تلتصق رائحة دمائهم برئتي ، كيف أبرر له اللحظة التي أفقدتني فيها غريزة الحياة قدرتي على التمييز بين الدفاع والهجوم ، كيف أصف له نظرة أول قتيل ، وصرخة آخر قتيل ، كيف أحكي له يا نبض حكاية الجرحى الذين أحملهم نهاية كل نهار إلى مهاجعنا ، كيف أصف له وجوه الرفاق الذين دفناهم في حفرة واحدة لأننا مطاردون بالموت ، وأولئك الذين تركناهم لوحوش الأرض لأن الوصول إليهم تعذر ، أفقد الإنسان بداخلي يا نبض مع كل هذه الدموية ، مع محدودية الحياة هنا وتفشي الموت ، ما أرخص الأرواح هنا يا نبض ، ينسى الإنسان المتحضر المتشدق في هذا الميدان كل ما كان يكذب به أمام المجتمع ، ويعود حيواناً يمارس القتل ليعيش .

لا أدري لماذا أتذكر الآن شجرة الورد التي زرعتها من أجلك؟

أمازالت على قيد الحياة؟

أمازلتِ تسقينها يا نبض؟

اسـقـيـهـا من أجلي ، لأشـعـر أن ثـمـة حـيـاة واحـدة كنت سببها ، حين أفكر في كل حياة كنت سبباً في نهايتها .

مازلت أحبك ، وأحلم بك ، وأفكر بك .

.

.

من نبض . .

هل للشوق وزن؟

لا أعرف . . ولكن قلبي يصبح بثقل الجبال كلما اشتقت إليك . .

أفكر بهـذا وأنا في منتصف مـدينة تحترق ، تتحول رويداً رويداً إلى ما يشبه الجحيم ، ثم لا تلبث تلك النار أن تشب في أعمـاقي كـمـا لو أني أبتلع المدينة كلها . . ربما لأن الحروب لا تُحدِث دمارها من حولنا فقط بل تطال كل ما فينا ، نحن أيضاً نصبح منكوبين أكثر من المدن المدمرة نفسها .

كنت قلت لي يومـاً : أنك لا تـذهـب للحــرب بـل تذهـب لتمنع الحرب من القدوم إلينا ، ولكن من يستطيع أن يمنع ألسنة اللهب من الوصول إلينا والناس هنا كالبارود؟

حتى الأطفال بات حديثهم عن المدفع والدبابة بدلاً من الألعاب والحلوى ، بل باتوا يظنون أن اللعبة الوحيدة هنا هي لعبة الموت ، فالأعين التي كانت تغمض في لعبة الاستغماية لم يعد يغمضها شيء سوى يد الموت ، يظنون أن الأرض التي تهتز كلما استقبلت صاروخا إنما تفعل ذلك على سبيل المداعبة لا التهديد ، ولكنني أعرف كما تعرف أن الحروب لا تجيد المزاح ، وأن ما تسرقه منا لن يتسنى لنا أبداً استعادته ، رغم أننا نتمسك دائما بأمل استعادة الأرض ، ولكن بداخلنا ندرك جيداً أن الأرض المزروعة بجثثنا ستنبت حياة خالية منا . . لذلك تبدو فكرة التضحية بها لأجل الآخر براقة لما تحمله من مأساة مغلفة بالبطولة .

عندما أمسكت يدك مودعة قلت لي أنك تتركها في يدي كي تستعيدها حين نلتقي مجددا ، تترك في يدي يدك المليئة حناناً لتمسح منها ذاكرة السلاح ، يدك الملطخة بعطري لتزيل منها رائحة الدماء . . وهي معي كما تركتها . . هي التي تنتشلني من تحت ركام منزل مهدم أو حلم محطم . . وتأخذني من الرصاصة المستقيمة أو الطائشة . . يدك هنا حين يرخي الموت كل الأيدِ من حولي . . تساعدني على البقاء صامدة فترة أطول . .

أصعب من الموت غيابك ، لا تبدو الأيام على حالها المألوف ، بل كأني مذ ذهبت أعيش يوماً واحداً يبلغ من الطول حد ألا ينتهي ولا تدق في ساعته إلا ثوان الخوف والقلق .

إنني لا أملك سلاحاً أقاتل به سوى حبك ، لا أملك أسباباً كبيرة ومهمة للعيش سوى رؤيتك أمامي سالماً ، سماع صوتك من جديد يبث الحياة في هذه الأماكن ، تأمل ضحكتك التي تشبه ضوء الصباح .

كلما علت أصوات المدافع من حولي أبحث عن صوتك في ذاكرتي . . عن آخر قصيدة قرأتها لي . .

كلما هزمتني الحاجة للبكاء فكرت في مزحاتك الحلوة لأستعيد بعض قدرتي على الضحك تحت وطأة هذا الشعور الثقيل بالوجوم . . رغم أن قدرة البكاء وحدها في هذا الوضع تعد ترفاً

كل الشعارات التي تُتلى في مثل هذه الظروف تبدو لي أشبه بالشتائم أو النكات البشعة . . وإن كنت أيضاً أرددها أحياناً على سبيل المواساة لا الاقتناع . . إنني لا أجد في هذا الصراع المحموم كلما استغرقت في التأمل أي معنى سوى جشع الإنسان ومحاولاته الفاشلة لوضع أطماعه في قالبٍ نبيل . . كل الأطراف على حق من وجهة نظرها ، كل الأطراف لديها

الكثير من الكلام حول ما يجب فعله . . ولكن الأبرياء وحدهم من يدفعون الثمن في النهاية ، ووحدهم من لا يحق لهم إبداء رأي في الأسباب التي من أجلها تؤخذ منهم حياتهم .

إنهم لا يقتلون الإنسان وحسب . . بل يقتلون كل المعاني التي تتعلق بالحياة ، يقتلون الحب والأمل والأحلام والطفولة . . يقتلون فينا كل شيء يمكن أن نحيا به ، فحتى لو خرجنا من هذه الحرب برئة قادرة على التنفس فسنخرج منها أيضاً بأرواح غير قادرة على الحياة .

شجرة الورد أزهرت ، مازلت أسقيها وإن كنت على غيابك أسقيها بدمعي ، وأرقبها تكبر كما يكبر حبك ويشتد عوده رغم جبروت الوقت في بعدك .

لا تفقد أملك ، لا تفقد قلبك ، لا تفقد روحك . . أنتظرك .

.

.

.

من نبض . .

منذ شهرين لم تصلني رسالة منك ، لم يرن الهاتف بصوتك ، لكني لم أفقد إحساسي بك ، أعلم أنك على قيد

الحياة في مكانٍ ما ، أعلم أن ثمة ما منعك ولكن رسائلك ستأتي ، صوتك سيأتي ، ستعود إليّ كما وعدتني .

أخفي قلقي عليك كجنين خطيئة لا تلبث الأيام أن تفضحه ، ولكني أتمسك بالأمل ، أتمسك بوعدك لي ، لابد أن تجيء فأنت تدرك أني بانتظارك .

ذهبت اليوم لزيارة أمك ، أعرف أن المكان الوحيد الذي سأجد رائحتك فيه هو منزلها ، لأنظر في وجهها الذي له نفس عينيك ، كنت تقول لي دائماً عنها «حضنها حديقة ياسمين» ، شممت رائحة الياسمين ، استقبلتني كما العهد بها دوماً برحابة قلب لا يليق إلا بأم ، وكأنها كانت تبحث فيّ عما أبحث فيها ؛ أثرك ، قبلت يدها وأنا أتخيل كم مرة مسحت بها على رأسك ، كم مرة وضعت بها لقمة في فمك ، وكم مرة شدّت بها أذنك لشدة شغبك ، كنت تقول لي أيضاً «صوت أمي يشبه صوت الماء ، حين تغني تشعرين أنها تمطر ، وحين تغضب تشعرين أن أمواج البحر تضرب الصخر ، وحين تحكي قصة تشعرين أن نهراً يجري بالقرب منك» ، صوت أمك يجعل كل شيء حيّ ، كانت تجلس أمام التلفاز تنتظر الأخبار تلو الأخبار ، كانت تبحث عنك أيضاً ، تلعن الأكاذيب التي تذاع صباحاً ومساءً دون أن يتم الإفصاح بما نحتاج ، يتحدثون عن

الجنود البواسل الذين يقدمون أرواحهم فداءً للوطن ، الجنود : بهذا المسمى العام يصفون فقدي لك ، غيابك ، اشتياقي ، وقلقي ، فراغ كبير يقتحم أعماقي عندما أفكر في جملة «يقدمون أرواحهم» ، إنهم في الحقيقة يقدمون أرواحنا ، كل واحد من هؤلاء هو روح لشخص ينتظره ويعاني في غيابه سكرات الموت ، لا تقدم روحي ، لا تفتدي الوطن بك ، أنت وطني . . اقطع غربتي وعد .

انتظرك دون نهاية . .

.

.

من نبض . .

صمتك يرعبني . .

تخدر إحساسي فلم أعد قادرة على تمييز الخوف من الحزن من الفقد من القلق ، عدة أشهر مرت دون أن يصدر منك أي شيء ، والحرب وصلت إلينا ، في البداية كان الموت ينتقي ضحاياه بعناية ، كنا نميز أسماء الشهداء ، نجزع لأنباء المفقودين ، نقيم مجالس العزاء ، ونبكيهم ، الآن أصبح الموت جماعياً ، ويصعب تمييز الراحلين لأنهم باتوا يذهبون جماعات ،

لذلك صرنا نبكي الباقين ، وندعو لهم بالرحمة لأنهم أكثر حاجة إليها فالذين ذهبوا إلى جوار الله نجوا ، أما الذين بقوا تحت مظلة الحرب لم تترك لهم قسوتها ما يعيشون به ، أعتاد على كل شيء هنا إلا غيابك ، كلما مرت الأيام ازداد أثره بي وقلّ صبري ، كل ما أريده الآن هو أن أعرف أنك بخير ، أنك لم تخلف وعدك ، انظر أنا مازلت عند وعدي ، من أجلك شهدت موت الجميع دون أن أستسلم وأرحل معهم ، فافعل شيئاً يجعل بقائي على قيد الحياة يستحق ، اكسر أغلال الحرب التي تحتجزك والمس روحي ، لعلي أستعيد بعض قدرتي على الاستمرار .

بالأمس شهدنا ولادة إحدى نساء القرية ، أنجبت طفلها تحت وقع القذائف ، رغم كل طرق الموت المتزاحمة استطاع أن يشق طريقاً للحياة ، ولكنه ما أن أدرك تورطه بهذا العالم البائس حتى فهم خطأ مفارقته رحم أمه الآمن واندفع بالبكاء ، لكن لات حين مناص ، لا أعرف إن كان الاعتياد أسوأ أم أجمل ما في الإنسان ، فنحن نعتاد حتى على أبشع الأشياء التي تحدث لنا ، بل وقد نفتقدها حال الزوال ، ولا أدري إن كنا بعد كل هذا سنفتقد صوت القصف ، وسنحن إلى الغارات لكثرة ما اعتدنا العيش معها .

قلبي يحدثني بأنك عائد ولكني لم أعد أستطيع تمييز صوت الأمل الواهي من صوت اليقين البيّن ، أياً كان فهذا هو الحبل الذي ألوذ به بعد حبل الله .

أنتظرك بين قذيفة وأخرى ، وأحبك حتى الرمق الأخير .

.

.

من نبض . .

يا نسيم الريح قولي للرشا

لم يزدني الورد إلا عطشى

لي حبيب حبه وسط الحشا

إن يشا يمشي على خدي مشى

روحه روحي وروحي روحه

إن يشا شئتُ وإن شئتُ يشى

هل تتذكر قصيدة الحلاج هذه؟

قرأتها لي ذات ليلة في حديث هاتفي قبل أن أنام حين شكوت إليك أرقاً أصابني ، نمت بعدها على نبرة صوتك كالأطفال ، لم أعد أنام الآن ، قلبي لا ينطفئ ، عيناي لا

تغمض ، في بداية غيابك كنت حين أتذكر صوتك أبكي شوقاً ثم أنام ، الآن حين أتذكره يتفاقم الفقد بداخلي فأبكي ولا أنام ، أريد صباحاً واحداً أراك فيه ، ليلاً واحداً أطمئن بك فيه ، أثراً واحداً أتبعك من خلاله ، أستعيد وجهك في مخيلتي فلا أزداد إلا شجناً ، أعرف أن رسائلي لا تصلك ، أو أنها تصلك ولا تقرأها ، أعرف أنك لو قرأتها لجئت إليّ ولو زحفاً ، وهذا ما يقتلني ، هل أصابك مكروه؟

لو أعرف أنك بخير ، لو تحدثني بظهر الغيب ، لو تسمح لنا أن نلتقي في الحلم ، أي شيء يجعل تحت هذا الركام بذرة قابلة للحياة ، يسرقون منا كل شيء ، حتى أصوات أحبتنا ، حتى أصوات قلوبنا ، والآن حتى أحلامنا بتنا نخبئها خشية أن يصلوا إليها يوماً ، يحشدون بداخلنا كل هذا الأسى اليومي دون أن يكون لانفجارنا في نهاية الأمر أي أهمية ، كل شيء هنا قابل للانفجار بأي حال .

أنتظرك رغم أنف الحرب والموت والدمار .

أحبك فوق كل هذا ، وأعيش بك . .

.

.

.

إلى نبض . .

حبيبتي ، بصري وبصيرتي ، دفئي ، الصلة الوحيدة بيني وبين الحياة :

وصلتني رسائلك دفعة واحدة هذا اليوم ، لم أستطع أن أكتب إليك لأن جراحي منعتني ، ولكن دائماً فكرت بك ، دائماً هذيت باسمك ، دائماً قاتلت الموت لأفي بوعدي لك ، أعتذر لأني جعلت قلبك يحمل فوق تعب الغياب تعب القلق ، سامحيني لأني لم أهزم الأوامر التي جعلتهم ينقلوننا بعجالة من معسكرنا الذي تبعثين إليه رسائلك إلى معسكر آخر ، سامحيني لأني لم أهزم ظروف المعارك الدامية وأبحث عن وسيلة لأتصل بكِ ، سامحيني لأني لم أهزم الجراح التي حبستني كل هذه المدة عن الكتابة إليكِ ، سامحيني لأني لم أمنع الحرب من الوصول إليكم ، سامحيني واحضني قلبك الذي أحب حتى أعود إليه وأحضنكما معاً ، أخبري القلق ألا يجرؤ أن يمس قلب حبيبتي وإلا سيجدني أمامه ، أخبريني أنكِ بخير وتنتظريني كما تواعدنا ، أنا بخير وأحبك كما تعرفين ، بل أكثر مما تعرفين ، سآتي إليكِ قريباً ، ثمة أنباء عن إمكانية منحنا هدنة لعدة أيام ، سآتي لرؤيتك ، سأجعلك تغفرين لي أيام الغياب والقلق التي كبدت قلبك الحبيب إياها .

أحبك من أولك إلى آخرك
وأتحرق شوقاً للغرق في عينيك . .

.
.
.

من نبض . .

هل تعرف أني ذرفت من الدموع حين رأيتُ رسالتك أكثر من دموعي منذ غبت مجتمعة؟

كأني حين حصلت عليها حصلت على رخصة من مقاومة قلقي ومدارة حزني ، وكتمان جزعي ، أعطيتني نفساً قبل الاختناق بلحظات ، أعدتني للحياة بل منحتني الحياة .

لتكن لنا هدنة من كل هذا الوجع ، لتأتِ ، لأراك ، لأنقذ ما تبقى من قدرة قلبي على النبض ، لأستسقي من وجهك ما يحيي يباس روحي ، لتتعانق يدينا ، لأقبل جراحك حتى تطيب .

تعال ، كل هذا البعد كثير على صبري ، كل هذا الصبر بحاجة لثمرة لقياك .

مـدين لك قلبي بأشـواق لا تحصى ، تعـال لأقضي ديني ، سيـضـمك حتى مـجيـئك كـما فـعل منذ دخلته أول مـرة ، وسينتظر أن لتضمنا معاً .

أحبك وأنتظرك بكامل التوق وفارغ الصبر .

الفصل الرّابع

طُبول

الفقدِ

تُقرع

الحربُ لم تضع أوزارها بعد يا نبض . . .

ما زال أتونها مشتعلاً كما صبيحة البارحة

ولكنّ حربي أنا انتهتْ!

أتذكـرين يوم قلتُ لكِ : في كلّ حـربٍ مـعـركـة جـانـبيّـة يخـوضـهـا كلّ إنسـان وحـده ، وهذه المعـركـة هي الحـرب كلّهـا بالنسبة إليه؟!

كنتِ حربي كلّها يا نبض . . .

وأنا الآن مهزومٌ بكِ!

إننا نخوض الحرب زُرافاتٍ ، ونقيسُ نتائجها وِحداناً!

وأنا حين خسرتكِ لم يعد هناك ما يمكنه أن يرمم خسـارتي لكِ . . .

حتى كسبُ الحرب مع الجماعة!

النّصرُ لا يُعزّي فاقداً عمن فقد

وهذا الوطن على اتسـاعـه أضيق من أن يكون لي حـبيـبـة بعدكِ!

كم أتمنى الآن وأنا أكـتبُ الـفـصل الأخـيـر في حـكايتنا لو كنتِ كـائنة روائيـة فـقط! عـلاقـتي بكِ لا تتـجـاوز حـدود هذه

السطور ، وحين أفرغُ منها يكون كلّ شيء قد انتهى . . .

كم أتمنى لو كنتِ صنيعة حبر انتهت بفاجعة

ولا تكوني فاجعةً صارت حبراً!

فالفواجعُ في الرّوايات تنتهي بانتهاء الرّواية ، ولكنّ هذه الفاجعة الحقيقية ستبقى تخزُني في قلبي طول العمر ، وستبقى هذه الأسطر التي أردتُ بها أن أتخفف منكِ تذكّرني بكِ

صرتِ اليوم في داخلي أكبر وأثقل من ذي قبل

كم أتمنى لو ربحتكِ وخسرتُ الرّواية

ولكني وجدتني نهاية المطاف خسرتكِ ولم أربحها

فحتى محاولة التّخلّص منكِ باءت بالفشل!

على أيّة حال لم أكن جاداً في التّخلصِ منكِ

أنتِ أقوى بكثيرٍ من أن يقتلكِ حدثٌ كتابيّ!

وأنا أضعف بكثيرٍ من أن أقطع الحبال التي توثقني بكِ

أحسدُ كلّ الذين الذين قتلوا أبطال رواياتهم بدمٍ بارد ، وتقاضوا على ذلك أجراً!

أحسدُ شكسبير كيف قتل روميو وجولييت ، ثمّ غسل يديه من دمهما كأنّ شيئاً لم يكن ، فالكائناتُ الرّوائيّة يسهلُ الخلاص من إثم دمها ، ولكن المشكلة في الكائنات الحياتية ، وقد كنتِ حياتي كلّها!

أحسدُ دوستويفسكي كيف قتل أبطاله في الجريمة والعقاب ثمّ تنهّد قائلاً : لقد أتممتُ هذه الرّواية!

ليتكِ كنتِ مخلوقاً روائيّاً أكتملُ بموته ، ولكنّكِ كنتِ أنتِ ، القتيل والقاتل ، وضعوا حداً لحياتكِ ، ووضعتِ حدّاً لحياتي ، ولا أدري السّاعة من أشد جرماً ، أهم الذين قتلوكِ ، أم أنتِ التي قتلتِني!

أحسدُ ارنست هيمنغواي كيف قتل بطله فريدريك هنري في روايته وداعاً للسّلاح ، دون أدنى وخزٍ في الضّمير ، ثم خرج من هذه الجريمة كالشّعرة من العجين ، أديباً مرمرقاً ، يعتاش من دم فريدريك!

أحسدُ توماس مان في «تريستان وايزوليت»

وأحسدُ ألكسندر دوماس في «غادة الكاميليا»

كانا قاتلين بارعين ، وخلّفا مسرح الجريمة أدباً يتناقله النّاس!

فليتني أنا الذي قتلتكِ فعلاً ، وهذه الرّواية إحدى مخلّفاتكِ . . .

ولكنّ الذي حدث أنّكِ أنتِ التي قتلتني ، وأنا أحد مخلّفاتكِ!

أحسدُ نجيب محفوظ كيف قتل عمر الحمزاوي في «الشحاذ» ، واختار له فاجعة ، حيث أنهاه مسطولاً لا يدري ما إذا كان أحد معارفه قد مات ، ولا إن كانتْ ابنته الوحيدة قد تزوّجتْ!

أو كيف قتل سعيد مهران في «اللص والكلاب» ، حيث أرداه بأيدي رجال الشّرطة في المقبرة بعد أن خبّأه هناك!

فليتكِ كنتِ صنيعة الورق لأقتلكِ بيديّ ، أو أستأجر أحداً لقتلكِ بعد أن أدله على مكانكِ

ولكــن للأسف كنتِ صنيعة الحياة ، وقد حاولتُ جاهداً أن أخبــئكِ عنهم ، ولكنّهم نهــاية المطاف وصلوا إليكِ ، وقتلونــي!

ليتني استطعتُ أن أختار نهايتكِ ، كنتُ صنعتُ من لحظة موتكِ مشهداً مؤثراً . . .

لربما قتلتكِ مبتسمة كما حدث في رواية «الساعة الخامسة والعشرون» حيث استهزأ البطل بمقصلة السّياف!

أو لكنتُ اخترتُ لكِ نهايةً عبثيّة ، كما في رواية «للحب وقت وللموت وقت» ، حيث انتهت حياة جرببير بطلقة طائشة!

ولكنّ الذي حدث معنا أنّه كان للحب وقت وللموت وقت ، فضاق الوقت على حبّنا ، واتسع لموتنا!

ليتني استطعتُ أن أفعل ما فعله غسّان كنفاني في «رجال في الشّـمـس» ، حـيـث قـتـل أبطال الرّواية ضـربة واحـدة دون أن يجعل أحداً يحزن لموتهم

فقلنا جميعا : يستحقّون : لماذا لـم يقرعوا جدران الخزّان؟!

واللهِ أتمنى لو كان بإمكاني أن أجعل من موتكِ حدثاً روائيّاً للشمـاتة ، فأُشـمّتَ القرّاء بكِ ، واجـعلهم يقولون بعـد الانتـهاء من الرّواية : أحسنَ إذ قتلها!

لـيـتـكِ كنتِ من حـبـرٍ وورق ، ولـم تكوني من لحمٍ ودم يانبض

لكنتُ اتّخذتُ من موتكِ سلاحاً أتشفّى به من الحياة ، كما فعلتْ اميلي برونتي في روايتها «مرتفعات ويذرنغ» ، حيثُ قتلتْ أبطال روايتها بالسّل ، وهو المرض الذي مات به أفراد عائلتها!

الغريبُ أنّها ماتت بالسّل بعد ذلك!

وأنا لا أُمانع لو كنتِ كائنة روائيّة أن تكون نهايتي كالنّهاية التي أختارها لكِ!

ولكن نهايتنا كانت مختلفة ، أنتِ عشتِ ميتة ، وأنا متُّ حيّاً!

كم تمنيتُ يا نبض أن تكون حسابات البيدر كحسابات الطاحون!

فأُقدّر الغلِّة ، فتأتي طحيناً كما قدّرتُ!

ولكني بدل أن أحصد قمحي حصدوكِ مني!

وبدل أن أجني دقيقي طحنوكِ وطحنوني معكِ

فلا وهم البيدر أفرحني بسنابله لحظة

ولا حقيقة الطاحون أغمّتني بهزيل طحينها برهة

كانت الخسارة محمولة وقتها ، دراهم معدودة ، أو كلماتٍ معدودة

ولكنّي لستُ الذي زرعكِ في السطور لأحصدكِ متى شئتُ

زرعكِ الله في قلبي ، وأخذكِ مني حين شاء ، وإذا شاء رضينا

رغم أن الحزن دراهم ليس دراهم معدودة

إنّه كمال قارون تنوء بحمل مفاتيحه العصبة من الرّجال!

مرهفٌ هذا الموت الذي اختاركِ يا نبض!

كنتُ دوماً أتخيّله جشعاً ، يأتي كوحش كاسر يخطف وجبته ويمضي ، وكلّ همه أن يقتات

أما وقد تخيّركِ

فعليّ بغضي له ، أعترفُ أنه عرف كيف يختار!

لو كنتُ موتاً لاخترتكِ!

أنتِ تُضيقين الاحتمالات جداً ، تُفصّلينها على مقاسكِ
بحيث تجعلين اختياركِ حتمياً
لو كنتُ تاجاً ما شدّني إلا رأسكِ . . .
لو كنتُ قلم كحل ما شدّني إلا جفنكِ . . .
لو كنتُ دبوس شعر ما شدّني إلا شعركِ . . .
لو كنتُ أحمر شفاهٍ ما شدّني إلا شفتيكِ . . .
لو كنتُ خاتماً ما شدّني إلا اصبعكِ . . .
لو كنتُ ساعة ما شدّني إلا معصمكِ . . .
لو كنتُ ماءً لقلتُ لكِ : اشربيني . . .
لو كنتُ قهوة لقلتُ لكِ : احتسيني . . .
فلماذا ألومُ الموت وأنتِ مغرية بكلّ ما فيكِ؟!
ولكنّ هذا الموت الذي صار في عينيّ مرهفاً مُذ أخذكِ
عاجزٌ لأنّه لم يستطع أن يقتل غمّازتكِ في ذاكرتي
ما زلتُ أراها منتصبة على خدّكِ كراية جيش!
أتذكّركِ يا نبض . . .
ضحكتكِ . . . صوتكِ . . . ملمس يديكِ . . . رائحة عطركِ
كلّ ما دار بيننا من كلام أتذكّره
أتذكـرين يوم قلتُ لكِ : حين تكتظُّ الذّاكـرة بالرّاحلين
نتسى لنعيش؟!.

لم أكن وقتها أعرفُ أنّكِ سترحلين ، وسأكتشفُ أن نسيانكِ حريّة مقيتة ، وإني أستمتعُ حين تستعبدني ذكرياتك!

لا تُصدّقي عبد الرحمن منيف حين يقول : النسيان أسهل طريقة للعيش!

بعض الذّكريات لا يمكن التّنازل عنها ، لأنّها تُثبتُ بالدليل القاطع أننا كنّا يوماً أحياء ، لا شيء يُثبتُ أني عشتُ غيركِ ، الموتُ يا نبض يأخذ الجميع ، ولكن الحياة لا يأخذها الجميع ، وأنا ما حييتُ قبلكِ ، ولا بعدكِ ، أنا عشتُ معكِ ، عمري كلّه كان بين مجيئكِ ورحيلكِ ، قبلكِ لم أكن ، وبعدكِ لن أكون!

ولا تُصدّقي جبران حين يقول : النّسيان شكل من أشكال الحرّية!

الحرّية باهظة الثمن لهذا يخافها أكثر النّاس ، وأنا أخاف عتقي منكِ ، أريدُ أن أبقى مُكبّلاً بكِ ، إنّ قيدكِ هو حرّيتي!

أغلالكِ في يديّ أساور

وسلاسلكِ في عنقي قلائد

وأنا لا أريد أن أنسى ، ولا أريد أن أحاول حتى ، لأني أعرف أنّها محاولة فاشلة لن تؤتي أُكلها ، وأنا أصلاً لا أريد أُكلا ، أريدُ

أن أحتفظ بكِ، لأنّها وسيلتي الوحيدة لأحتفظَ بي!

أتذكرين جلجامش يا نبض، ذاك الذي طاف الأرض بحثاً عن نبتة الخلود بعد أن فجعه موت أنكيدو؟

غبيّ هذا البابليّ حتى العظم، كان عليه أن يبحث عن نبتة الخلود في حياة أنكيدو، أما وقد مات فلا نفع لها، ولو عثر عليها وأكلها كشاة جائعة ماذا سيظل يفعل في الأرض وقد خسر من يحبّ، إن الخلود تمديد لأمد الفاجعة لا خلاصاً منها، ولو عثر عليها سيتعذّب فترة أطول، لأن الموت على رأي غسان كنفاني لا يُوجع الموتى وإنما يوجع الأحياء، وما دمنا أحياء سنتوجع أكثر!

وإني أُقسمُ لكِ غير حانث، أنه لو كان لها وجود وعثرتُ عليها فلن آكلها!

ماذا سأفعلُ على ظهر هذا الكوكب وحدي، مُذ رحلتِ صارت الأرض مهجورة، كأنكِ ساكنتها الوحيدة، ويوم فتحتِ بابها وغادرتِ صارتْ فارغة!

جلجامش لم يكن مفجوعاً بأنكيدو كما أنا مفجوع بكِ، ولو كان كذلك لاحتسى سُمّاً ولحق به كما أريدُ أنا اللحاق بكِ، ولكن ما كان لي أن أقتل نفسي وقد قتلوني يوم قتلوكِ، فالميتُ لا يُقتل مرّتين!

لقد أخبرتكِ أنّ حربي انتهتْ بموتكِ، خسرتها يوم خسرتكِ، ولم يعد عندي شيء أُقاتلُ لأجله، ولكن إن حدث أن قاتلتُ فلا لأرمِ هزيمتي بكِ، لا شيء يرمِ هزيمتي بكِ حتّى نصرنا! وإنما سأقاتل لأكون قريباً من الموت أكثر فهذا يزيد احتمالية لحاقي بك، لهذا لن أحاول أن أتّقي الرّصاص كما كنتُ أفعلُ من قبل، لم يبقَ عندي شيء أعيشُ لأجله، سأحاولُ أن أكون هدفاً سهلاً لألحق بكِ، فقد أوصيتُ أن يدفنوني قربكِ، هذه الأرض التي لم تجد لنا متّسعاً معاً على ظهرها، أريدُ منها كخدمة أخيرة أن تجد لنا متّسعاً معاً في بطنها!

أتذكرين يوم قلتُ لكِ: النّصرُ لا يُعزّي فاقداً عمن فقد، فلو انتصرنا وخسرتكِ، فماذا سأفعلُ بنصرٍ لستِ فيه؟!

النّصرُ سيذكّرني هزيمتي بكِ!

لهذا لا أريده . . .

أريد لهذه الحرب أن تنتهي، وللطلقة الأخيره فيها أن تستقر في قلبي، فألحق بكِ، ولا يُفجع أحد بعدي بحبيب فجيعتي بكِ!

الحياة دونكِ لا تُطاق يا نبض

وحدة قاتلة . . .

أخذوا مني كل شيءٍ يوم أخذوكِ منى

لم أكن أعرف أنّكِ كل شيء!

وكان عليكِ أن تموتي لأعرف كم أحبّكِ!

أتذكرين يوم قلتِ لي : إذا متُّ هل سترثيني؟!

أجبتكِ يومها : حياتكِ عندي أغلى من مليون كتاب

وأنا أريدُ أن أعيشكِ لا أن أتذكركِ

أن أتغزّل بكِ لا أن أرثيكِ

الرّثاء موت آخر يا نبض . . .

وحين أشرع برثائك فكأنما أشرع في قتلكِ ثانية

كلّ الذين رثوا قبلي كانوا يقتلون أحباءهم مرة أخرى

كانوا يُشيّعونهم في كل نَصّ!

وأنا يكفيني موتكِ مرّة واحدة!

أنتِ لا تحتاجين رثاءً ، وأنا لا أحتاجُ كتاباً أدفنكِ فيه

لا أريدُ أن أحفر لكِ في كتاب وأهيل عليكِ الكلمات!

الذين رثوا قبلي يا نبض لم يكونوا يبيعون أدبهم وإنما كانوا يبكون بطريقتهم

وأنا اخترتُ أن لا أبكيكِ بالكلمات رغم أنها طريقة مغرية للبكاء!

حتى أني لا أريدُ أن أُخلّدكِ كما فعلتْ الخنساء بأخيها صخراً

كوكبٌ رضيَ بقتلكِ لا يستحقّ ذكراكِ
أريدُ لهذا الكوكب أن ينساكِ
أنتِ لي وحدي ميتة ، ولا أريدُ لأحدٍ أن يشاركني بكِ
أتذكرين يوم قلتِ لي : يشعلُ الرّجال الحرب وتكتوي بها النّساء؟!

وافقتكِ يومها على الفور ، لأني كنتُ كما الآن ، أعرفُ أن الحرب شأن الرّجال ، إنها أقبح من أن تكون شأن النّساء!
ولكن النساء لا يكتوين وحدهنّ
الرجال الذين أوقدوها ليصطلوا بها ها هم يكتوون بها
ماذا تريدين كيّاً أشدّ من كيي بكِ؟!
في قلبي نار يا نبض لا تطفئها أنهار العالم ولو صُبّتْ بي!
ما دمتُ حيّاً سأبقى أتقلّبُ على جمر رحيلكِ
وليس غير الموت يطفئها ويحيلني إلى رماد!

.

.

.

أتذكرين يوم قلتُ لكِ : لطالما أحببتُ التّفاصيل يا نبض ، وكنتُ شغوفاً بها ، يقتلني أولئك الذين لا تلفتهم التفاصيل؟!

أما الآن فلا يقتلني إلا التفاصيل التي كنتُ شغوفاً بها ، ليتني استطعتُ أن أحبّكِ قطعة واحدة ، لأفقدكِ قطعةً واحدة!

مشكلتي معكِ أني أحببتكِ قطعةً قطعةً عن سابق إصرار وترصّد

لهذا أفقدكِ قطعة قطعة

في هذا الوطن المأتم كلّ لونٍ أسود يُذكّرني بعينيكِ

وأنا لا أعرفُ منهما خلاصاً

حتّى الدخان الأسود المتصاعد من المعارك يُذكّرني بعينيكِ!

وإني حين أكون في الخندق ولا صوت إلا أزيز الرصاص ، أنظر إلى الدخان المتصاعد فلا أتذكّرُ إلا عينيكِ ، ويُصبحُ أزيز الرصاص عزفاً

عندما تحضرين إلى ذاكرتي ، وأنتِ أصلاً لا تغيبين ، يصبح للأشياء طعم آخر ، ولون آخر

ذكرى عينيكِ تحيل الحرب إلى نزعة

الدّخان المتصاعد إلى قصيدة مضبوطة على وقع قدميكِ

هذا هو الوزن الوحيد الذي يطربني!

أوزان الخليل قوالب يكتبُ بها الجميع

أما إيقاع خطواتكِ فوزني أنا ، وعليه أضبط إيقاع أيامي

لو أدرككِ الخليل بن أحمد لوضع بحراً سمّاه قدميكِ

ولو كنتِ في زمن الأخفش لما تدارك على أستاذه بحره المتدارك أحاديّ التفعيلة

لكان تدارك بحراً سمّاه خُطاكِ

لو أدركك الجاهليّون لتركوا أطلالهم ووقفوا عندكِ

وما كان امرؤ القيس قال : قفا نبكي من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

كان سيقول لصاحبيه : قِفا نتأمل هذه الحلوة

وقتها ما كان أبو نوّاس سيسخر منه ، لِمَ بكى واقفاً على رسم درس ، وما ضرّه البكاء لو كان جلس!

لكان أشاد به ، ونظم له بيتاً مفاده ، نِعم الوقوف بنبضٍ يا امرأ القيس!

لو أدركك الصّعاليكُ ما خرجوا على القبيلة ، فقبائل فيها نسوة بجمالكِ لا يُخرجُ على وليّ أمرها!

لكان الشّنفرى يُسابق الخيل إليكِ

والسّليكُ الذي خرج على سيّد القبيلة بايعكِ سيّدة لها

لكنتِ وقتذاك أول عربيّة تمسكُ بزمام القبيلة

ولكان إمامهم عروة بن الورد دمث الأخلاق ، ما سبق الاشتراكيين وانحاز حقيقة إلى البروليتاريا ، لكان حتماً انحاز إليكِ

لو أدركَكِ عنترة ما سمعنا بعبلة

لو أدركَكِ كُثير ما سمعنا بعزّة

لو أدركَكِ ابن أبي ربيعة ما كان رأى الصغرى متيمة ، ولقال عنكِ ما قالته هي عنه : وهل يخفى القمر!

لو أدركَكِ جميل لصار نبيّ العذريين ، ولماتوا فيكِ وجداً!

لو أدركَكِ أبو نوّاس ما احتاج الخمر ليثمل ، ما مسّ أحد يديكِ إلا مسّته سرّاءُ!

لو أدركَكِ المتنبي ما قال في علياء :

فلو كان النساء كمن ذكرنا ، لفُضلتِ النساء على الرّجال

أنتِ الأنثى التي تجعل التأنيث للشمسِ فخراً ، وتجعل التّذكير عيباً في الهلال!

ولو أدركَكِ ابن زيدون ما هجته ولادة بنت المستكفي بعد أن خانها مع وصيفتها ، لأن جمعاً فيه أنتِ ليس فيه امرأة غيركِ!

الإناث يحتجنك ليصبح جمعهنّ جمع تأنيث ، ولو اجتمعت نساء الأرض ولستِ فيهن فاجتماعهم عندي جمع تذكير!

لو أدركَكِ الأندلسيّون لجعلوكِ موشّحاً ، مفتاحه رفّة رمشكِ ، وأقفاله غمازة خدّكِ!

ولكن لحسن حظِي أنا الذي أدركتكِ دونهم
ولسوء حظّي أنا الذي فقدتكِ دونهم!
وأنا الذي سأتعذّب بتفاصيلكِ طول عمري
أشتاقُ ليديكِ يا نبض
هذه الرّقعة البيضاء الصّغيرة ، أكبر من هذا الوطن الذي قتلكِ!
يداكِ وطني!
أشتاق لشعركِ
هذا الحرير الأسود الذي كنتُ أشتهي أن أتغطّى به وأغفو
فلا أستيقظ إلا عليكِ
أخذوه مني!
وها أنا أرتجف دونكِ
أصيحُ بهم : دثّروني!
فيناولوني أغطية لا تزيدني إلا بردا!
أشتاقُ لشفتيكِ
للورد المنسدح فيها بغنج!
كنتِ تسألينني بشقاوة النّساء : أي لون «أحمر شفاه» تحب كي أضعه لكَ؟!
فأجيبكِ بحماقة الرّجال : لا تضعي شيئاً ، لوني المفضّل

هو لون شفتيكِ ، لا تُغطّي مشتل الورد الجوريّ هذا بشيء ، اتركيه هكذا مكشوفاً أمامي كفضيحة!

فتضحكين وتقولين بغنج الجميلات : مجنون أنتَ!

فأجيبكِ ببلاهة المُتيّمين : مجنونكِ!

اشتقتُ لصوتكِ

للبحّة السّاحرة في آخر الكلمات الخارجة من فمكِ

فأقول لكِ : ليس في صوتكِ بحّة كما أخبروكِ

هذه الكلمات مسّها خمر ريقيكِ فثملتْ!

صوتكِ زقزقة

موسيقى تعزفها جوقة كاملة : رأتاكِ ، وحنجرتكِ ، ولهاتكِ ، وسقف حلقكِ ، وثناياكِ ، ولسانكِ ، وشفتاكِ!

اشتقتُ لغمّازتكِ

تتقوّسُ على خدّكِ كأنّها فم صغير

لغته كلمة واحدة : قبّلني!

وعندما تتكلّمُ لا أعود أسمع من الأصوات إلا صوتها ، حتى صوتكِ يقع في أُذنيّ فقط ، ولا يقع في قلبي إلا صوت غمازتكِ ، تهمسُ لي : قبّلني!

التّفاصيلُ مرهقة يا نبض

ليتني ما أدمنتُ تفاصيلكِ

لكنتِ الآن فاجعة بدل أن تكوني فواجع!

أتذكرين الهامة التي تخرج من جسد القتيل يا نبض؟

ماذا لو كان العربُ على صواب ، وهامة عطشى عند قبركِ تصيح إلى أن ينشقّ حلقها ، اسقوني . . . اسقوني!

كانتْ هامات العرب يكفيها دم واحدٍ لترتوي ، لأن العرب لم يكونوا يثأرون لقتلاهم كما قلتُ لكِ ، وإنما كانوا يثأرون لأنفسهم!

فلتصرخ هامتكِ حتى تُبحّ ، ليس في قاتليكِ من يصلح أن يكون ثأركِ ، ولو شربتُ دمهم كلّهم فلن يرتوي عطش الثأر في حلقي

كفانا من هذه الحرب ما لقينا

لتخرس الهامات الجاثمة على قبور الأموات ، وعلى صدور الأحياء

لا شيء اسمه الثأر

وثأري ليس عند أحد ، لا عند الذين أشعلوا هذه الحرب ، ولا عند الذين أحرقوكِ

أنتِ التي قتلتِني بموتكِ ، وما كان لي أن أسعى في ثأركِ وأقعد عن ثأري!

أُعانقُ فيكِ كلّ الذين أحبّوا وفقدوا!

أُعانقُ فيكِ سيّد النّاس إذ يفقدُ خديجة
إحدى عشرة زوجة ولم يملأ مكانها في قلبه أحد!
يتركُ مكّة كلها إلى غار حراء وقد حُببتْ إليه الخلوة
فقد كان يُطهى على نارٍ القَدر الهادئة لينضج ويستلم قيادة البشريّة

ولما بلغ الأربعين كانتْ السّماء قد قضتْ أن يُبعث سيّد الأرض!

ولم يكن غريباً أن يُبعث الأميّ بـ«اقرأ» ، فهذا الدين أُريد به أن يقلب الأرض رأساً على عقب!

نزل من الغــار يرتعــد من هول اللحظة ، ويرتجف من برد التجربة

كان عنده قبيلة كبيرة . . .
وأقرباء كثر . . .
وأصدقاء مخلصون . . .

ولكنّه ذهب إلى خديجة ، ودفن رأسه في حضنها ، كأنّه يقول لها : أنتِ قبيلتي!

وكانت قبيلته . . .

دافــعتْ عنه حــتّى آخــر جنديّ من جــيش الحنان في صدرها!

وطمأنته : واللهِ ، لا يخزيكَ الله!

ويوم ماتتْ ، سمّى ذلك العام كلّه عام الحزن ، وكانتْ الأرض كلّها لا تصلح أن تكون عزاءً له ، فدعاه ربّه إلى السماء ليُعزّيه بها!

وظلّ من فرط الوفاء يذكرها ، فتغار منها عائشة وهي في قبرها

فتقولُ له : أما زلتَ تذكرها وقد أبدلكَ الله خيراً منها

فيقولُ لها : واللهِ ما أبدلني الله خيراً من خديجة!

أبعدَ هذا الحُبّ حُب ، وبعد هذا الوفاء وفاء؟!

لا يُطيّب خاطر حيّ على حساب ميت ما زال حيّاً في قلبه!

وفي آخر أيامه ، وقد تجاوز السّتين قليلاً ، يرى نسوةً وقد بلغنَ الثمانين إلا قليلاً ، فيخلع رداءه ليجلسنَ عليه ، ويقول لمن حوله مبدداً اندهاشهم : هؤلاء صويحبات خديجة!

لم يكن يُحبّها فقط ، كان يُحبّ كلّ من أحبّها أيضاً

كلّ شيء يُذكّره خديجة يخزه في قلبه ، ويُبكيه . . .

وعندما وقع زوج ابنته أسيراً يوم بدر ، وأرسلت عِقداً كانت قد ورثته من أمّها تفتديه بها ، بكى لمّا رأي العِقد ، واستسمح المسلمين أن يعيده إلى صاحبته ، وأرسل إلي ابنته موصياً : لا تُفرّطي بعقد خديجة!

مدرسة هذا الرّجل في كلّ شيء . . .
أُعانقُ فيكِ كُثير إذ يفقدُ عزّة!
وأرجعُ بكِ إلى أوّل الحكاية . . .

إذ يموتُ أبوه وهو صغير ، فيكفله عمّه ، ويشتري له قطيعاً يرعاه ويعتاش منه ، وذات يوم بلغ بقطيعه موضعاً يُقال له الخبت ، فصادف نسوةً من بني خمدة ، فسألهنّ على موضع الماء فأرشدنه ، وبينما هو على الماء يسقي ماشيته ، إذ جاءته أصغرهنّ وأجملهنّ وقالت له :

- السّلام عليكَ أيها الرّجل
- وعليكِ السّلام أيتها الجميلة!
- خُذ هذه الدراهم
- دراهم؟ ولمَ تعطيني الدّراهم؟
- النّسوة اللائي دللنكَ على الماءِ جمعنها لك!
- وما حاجتي للدّراهم؟
- هُنّ يحتجنَ كبشاً من كباشك والدّراهم ثمنه
- خذي كبشاً ، ورُدّي إليهنّ دراهمهنّ
- تعطينا كبشاً دون ثمن!
- قبضتُ ثمنه منهنّ إذ أرسلنَ في طلبه جميلة مثلكِ!

فتضحكُ . . . ويسألها :

- ما اسمكِ؟

- عزّة

- عزّة هي ابنه الغزال وإنّكِ لغزالة!

فتحمرّ خجلاً ، وينتهي الحوار ، ويبدأ الحب!

وكعادة الشّعراء لا يملكون قلوبهم ولا ألسنتهم ، يبدأ كُثير يُشبب بها ، ويطوف ذِكرها في شِعره أرجاء الصّحراء ، فيتناقله النّاس ، وقد كان القوم ولم يكن لهم غير الشّعر علماً!

ويتقدّمُ لخطبتها ، فيرفض أبوها على عادة العرب الذين لا يُزوّجون امرأة لرجلٍ شبب بها!

وتتزوج غيره ، وتمضي السنوات ، أعجز من أن تطوي حبّهما وهي تمضي ، ويموت زوجها ، وتدخل على عبد الملك بن مروان في دمشق وقد بلغت الثمانين

فيقول لها : لم يبقَ أحد في هذه الصحراء إلا علم بما كان بينكِ وبين كُثير!

فتجيبه : هذا صحيح يا أمير المؤمنين ، وهو الذي أشقاني قبل الزّواج وبعده

فيسألها : أتحبينه يا عزّة؟

- أتريد الحقيقة؟

- لا أريد غيرها ، قولي يا عزّة

- منذ أول لقاء وقلبي متعلق به

- أعرفُ يا عزّة ، ولكن بعـد أن مات زوجكِ ، لمَ لا نجعل لهذا

الحُبّ نهاية سعيدة؟!

- ماذا تقصد يا مولاي

- هل توافقين على الزّواج؟

- ممن يا مولاي؟

- من كُثير!

- أتزوّج بعد هذا العمر؟!

- ولمَ لا ، هذا الأمر عندي

- ومن يعصي لك أمراً

ويكتبُ عبد الملك إلى كُثير أن احضرْ إليّ حالاً ، فأسرعَ كُثير إلى دمشق في عجالة ، يقلبُ رمل الصّحراء وقد علم مراده ، وما إن وصل إلى دمشق حتى طالعته جنازة ، فعرف أنها جنازة عزّة ، فخرّ مغشيّاً عليه ، ولما أفاق ذهب إلى قبرها راثياً :

أقولُ ونِضوي واقفٌ عند رمسها

عليكِ سلام الله والعينُ تسفحُ

وقـد كنتُ أبكي فـراقكِ حيّـةً

وأنتِ لعمري اليوم أنأى وأنزحُ

أُعانقُ فيكِ ليلى الأخيليّة إذ تقفُ على قبر توبة!
عاشقان على غير شريعة الصحراء
شاعران لا يملكان زمام القلب ، ولا زمام القصيدة
تغزّل بها ، وتغزّلتْ به . . .

لهذا عندما جاء يخطبها ردّوه! لذات السبب الذي رُدّ فيه كُثير عن عزّة ، والمجنون عن العامريّة ، وهو أن العرب لا تُزوّج بناتها لمن شبب بهنّ!

وكما العامرية وعزّة ، تتزوّج الأخيلية رجلاً غير توبة
ويبقى عرى الحبّ

وكان توبة فارساً مغواراً لا يهاب ، يأتي بشجاعة الفارس وجنون العاشق ليراها من بعيد ، وكانت تعرف موعد قدومه فتخرج لتراه . . .

وحدث ذات يوم أن كمن له زوجها وأهله ليقتلوه ، فعرفت ليلى بأمرهم ، وأرادتْ أن تُحذّره ، وكانتْ ذكيّة جداً ، وكان لّماحاً ، فصعدتْ على تلة مشرفة ، وخلعتْ نقابها على غير عادتها ، فلما رآها علم أن هناك أمراً دُبّر بليل ، فقفل راجعاً وهو يقول :

وكنتُ إذا ما جئتُ ليلى تبرقعتْ
وقد رابني منها الغداة سفورها

ولكن توبة الشقيّ كان يوماً في مجلس الخليفة فلطمه أعرابيّ ، فعلم الخليفة أن توبة لا يقعد عن ثأر ، فاستبقاه عنده ، ولما خلى سبيله أخذ يُنقّب الصحراء بحثاً عن الأعرابيّ ، ولما وجده دارتْ بينهما مراشقة بالسّهام ، وكان توبة رامياً ماهراً ، فأصابه بسهم في صدره ، ولما أقبل عليه

قال له الأعرابيّ : انزعه مني!

فقال له توبة : ما غرسناه لننتزعه!

فطاف أهله الصحراء بحثاً عن توبة ، ولما وجدوه قتلوه!

وبعد زهاء خمسين عاماً ، تمرُّ الأخيليّة بقبر توبة ، وكانتْ برفقة زوجها ، وأصرّتْ أن تنزل لتّسلم عليه في قبره ، لأنه أنشدها مرّة :

ولو أنّ ليلى الأخيليّة سلّمتْ
عليّ ودوني جندلٌ وصفائحُ
لسلّمتُ تسليم البشاشة أو زقا
إليها صدى من جانب القبر صائحُ

ولما وصلتْ إلى قبره وهي على النّاقة في هودجها ، طارتْ بومة كانتْ بجانب قبره ، فجفلت الناقة ، وألقت الهودج ، فدق عنق الأخيلية وماتت ، ودُفنتْ جنبه!

أُعانقُ فيكِ الماغوط إذ يفقدُ زوجته

ويقـول عنهـا بمرارة المنفي الذي حـرمـه وطنه أن يمشـي في جنازتها :

ثلاثون عـامـاً وهي تحملني على ظهرها كـالجنديّ الجـريح ، وأنا لـم أستطع أن أحملها خطوة إلى قبرها!

وهذه كانتْ حكايتي معكِ!

حملتني حيّة ، وحرموني من حملكِ ميتة ، أبلغَ بكِ الزّهد أن لا تكوني ثقيلةً عليّ حتى في موتكِ!

كان الوقتُ ظهيرة يا نبض . . .

وكنتُ عـائداً من خندقي لـرؤيتكِ ، الشـمسُ تلسعُ وجـهي بسياط وهجها ، وأنا لا أكترث ، فحين أمشي إليكِ تهون مشقّة الدّرب ، وتتذللُ وعورة الطّريق!

كل من مررتُ به رأيتُ في وجهه كلاماً لا يريد أن يقوله لي!

عرفتُ أنّ شيئاً قد حدث ، ولكني أكملتُ طريقي مكذّباً نفسي ، ولأول مرّة في حياتي تمنّيتُ لو أني لم أكن لمّاحاً

وصلتُ إلى بيتكِ فإذا هو كومة حجارة

ولأنكِ لم تكوني تغـادريه في الحـرب إلا لنلتـقي ، عـرفتُ ما الذي حدث لكِ

وقـفتُ مـصـدوماً ، لا أريدُ أن يمرّ أحد بي ليـؤكّـد لي مـا أنا على يقينٍ أنّه حدث

إلى أن جاءتْ ابنة جاركم ذات العشر سنوات ، وقال لي :
ماتتْ نبض ، كلهم ماتوا ، وانفجرتْ باكية!

لم تستطع قدماي أن تحملاني

وقعتُ على الأرض كأنّ رصاصة أصابتني ، لطالما كنتُ أرى الرجال يقعون هذه الوقعة ، وقد حان الآن دوري!

ذهبتُ أبحثُ عن قبركِ ، وأنا أُحسنُ الظنّ بقاتليكِ!

إلى أن قال لي شيخ متهالك : كلهم مدفونون هنا!

حتى قبراً منفرداً لم يمنحكِ هذا الوطن الذي منحته كلّ شيء!

لقد حرمني أن أبكيكِ وحدكِ

ولكنّي كما حياتك لم يكن لي على ظهر الأرض غيرك ، فإني في موتكِ ليس لي في بطن الأرض غيركِ!

نسيتُ كلّ كلامكِ إلا قولكِ : عِدني أني إذا متُّ ستكمل حياتك ، وتتزوج ، وتنجب بنتاً وتسميها باسمي!

عرفتُ يومها أننا لن نلتقي بعدها ، وأنّ لعنة الحاسة السادسة قد أصابتكِ ، فعرفتِ أنّه آخر لقاء ، وقد صدق حدسكَ!

لن أُنجز وصيّتكِ!

ولن أُنجب بنتاً وأسميها باسمكِ ، البنتُ التي كنتُ أريد انجابها كان من المفترض أن تكوني أمّها ، فلا تُعاتبيني ، أنتِ وأَدْتِها في داخلي يا نبض ، جعلْتِني قبراً وأَهَلْتِ التراب عليها وعليّ!

اخرجي قليلاً لأعاتبكِ

لأصرخ في وجهكِ كما لم يحدثْ من قبل أن فعلتُ

لأضمّكِ إلى صدري ، وأقول لكِ : الآن موتي كما يحلو لكِ!

ADHAM SHARKAWI

نبض

أدهم شرقاوي

الآنَ يا نبض أجدُ اللحظةَ مؤاتيةً لأرتكبَ خيانتي الأولى لكِ !
قررتُ أخيراً أن أكتبكِ !
بعضُ النساءِ نخونهنّ إذ نكتبهنّ
فتحويل امرأةٍ مثلكِ إلى لغةٍ يُعتبرُ خيانةً من زاويةٍ ما
إني وبعد كل ما حدث أحاولُ أن أقفَ على الحدّ الفاصلِ بيني و
بينكِ ... وليس غير الكتابةِ سبيلي !
أعرفُ يا نبض أني إذ أكتبكِ أحمّلُ اللغةَ فوق ما تستطيع ...
الليلُ في عينيكِ أكبر من قدرةِ اللغةِ،
وهذا السّوادُ كله يُعاش ولا يُحكى !
والكحلُ في جفنيكِ أوسعُ من مساحةِ الكلامِ ،
والغمازة التي ترتسمُ على خدّكِ الأيمن حين تبتسمين
تصيب اللغةَ بارتباك تام
ولكنّها فكرة تستحق العناء ...
فكان اللهُ في عونِ لغةٍ أريدُ منها أن تصير أنتِ

KALEMAT

DESIGNED BY
AHMAD BAISAN
BAISAN